الرحّالة في السّودان

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

٢

الرحالة "براون رُولِيه"

تأليف

الدكتور نسيم مقّار

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٩٦١

يطلب من المكتبات الشهيرة

مطبعة لجنة البيان العربي

٥ شارع مصطفى كامل - بالفجالة ت ٢٢٠٧٩

DT
154.73
.M33
1961
vol. 2

20-50-2
16936 4
9 15939728

الرحّالة في السّودان

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

مكتبة قطر الوطنية
QATAR NATIONAL LIBRARY
عضو في مؤسسة قطر
Member of Qatar Foundation

٢

الرحالة "برانْ رُولِيه"

تأليف

الدكتور نسيم مقّار

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٩٦١

يطلب من المكتبات الشهيرة

مطبعة لجنة البيان العربي
٨ شارع مصطفى كامل - بالفجالة ت ٤٢٠٧٩

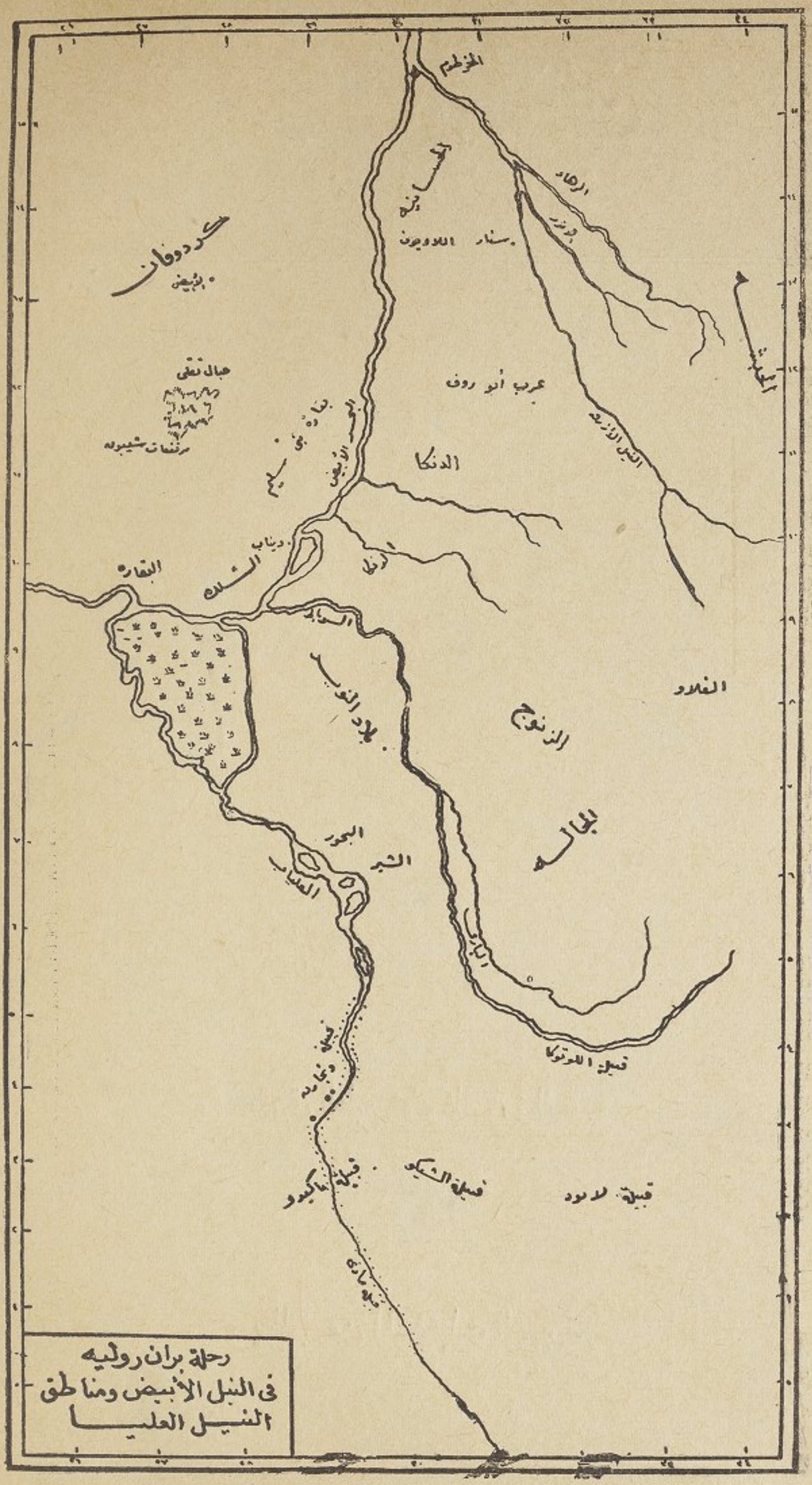
الخرطوم
النيل الأزرق
السوباط
سنار
الدويم
النيل الأبيض
كردوفان
الأبيض
جبال نقى
مرتفعات شيبونه
جزيرة آبا
بحر أبو روف
الدنكا
دنياب
الشلك
البقارة
رنك
بلاد النوير
الشلك
الشبه
البحر
الغزال
الزاندج
الفلاد
الجالبه
قبيلة الأوتوكا
قبيلة ماكيدو
قبيلة الشيلوك
قبيلة لاتوكا
رحلة براون روليه
فى النيل الأبيض ومناطق
النيل العليا

الرحالة بران روليه Brun-Rollet

(١٨١٠ - ١٨٥٨)

ظروف رحلته فى السودان ودوافعها الرئيسية : —

« بران روليه » مكتشف وتاجر فرنسى ، نشأ فى مدينه سافوى بفرنسا من أسرة فقيرة ، وكان مقرراً فى الأصل أن يعمل فى خدمه الكنيسة . ولكن غير رأيه ، وأبحر عام ١٨٣١ إلى الاسكندرية بحثاً وراء العمل والمعرفة والشهرة . (١)

وفى الاسكندرية التقى بتاجر فرنسى من بنى جنسه يدعى فيسيير J. M. F. Vaissiere كان قد جاء من كردوفان بعد أن جمع ثروة كبيرة من تجارة الصمغ ، ويرغب فى العودة إلى السودان . فقرر بران روليه مصاحبته . (٢)

وفى أواخر عام ١٨٣١ م وصل « بران روليه » السودان ، وهناك اشتغل بالتجارة لحسابه الخاص ، واستطاع فى فترة وجيزة أن يجمع ثروة كبيرة . وبعد أن تجول « بران روليه » فى أكثر مناطق السودان الشمالى ، رأى أن يقوم برحلة فى النيل الأبيض هدفها الأول الكسب المادى عن طريق التجارة . فقد قرأ تقريرين للمسيو « دارنو » والمسيو « ثيبو » — وهما الفرنسيان اللذان رافقا حملة البكباشى سليم قبطان الكشفية الثانية فى حوض هذا النهر ومناطق النيل العليا (١٨٤٠/١٨٤١) — عن القبائل التى تقطن هذه الجهات ، وخلص منها إلى أنه فى الإمكان إقامة علاقات طيبة ومجدية مع هذه القبائل تعود

---

(١) Hill: Biographical dictionary of the Anglo - Egyptian Sudan, p. 89.

(٢) Idem.

بالفوائد المادية فضلا عن المنافع العلمية عن طريق إضافة معلومات جغرافية جديدة عن أوطانهم وأحوالهم . (١)

لذلك سافر « بران روليه » إلى القاهرة حيث اشترى مركبين اجتاز بهما الجنادل التى تعترض مجرى نهر النيل إلى الخرطوم . ومنها عزم على الرحيل جنوبا فى النيل الأبيض .

ولكن عندما علم حكمدار السودان خالد باشا (١٨٤٥ — ١٨٤٩) بمشروع « بران روليه » هذا أخذ يقيم الصعوبات والعراقيل فى وجهه ليحول دون تنفيذه حتى لا يكون سببا فى الاقلال من الأرباح التى كان يتوقع الحصول عليها من وراء تجارة أعالى النيل . (٢)

ورغم الصعاب والعراقيل التى أثارها رجال الحكومة أمام هذا المغامر الفرنسى ، فإنه استطاع أن يقوم بالرحلة التى اعتزم القيام بها فى حوض النيل الأبيض ، بل أعقبها برحلات أخرى طويلة فى جهات أعالى النيل فى السنوات التالية (١٨٤٥ — ١٨٥٢) ، جنى من ورائها أرباحا وفوائد عظيمة فى مجال الكسب المادى والعلمى وذلك بفضل العلاقات الودية التى نجح فى إقامتها مع سكان هذه الجهات من الزنوج مثل الشلك والنوير والبارى .

وفى هذا المعنى يقول « بران روليه » لقد قمت بعدة سياحات كنت خلالها أدير الحملات بنفسى وأحاول أن أنشىء علاقات طيبة مع القبائل فى الداخل لتحسين تجارة سن الفيل وزيادة حجمها . . . ويمكننى أن أقول أنى ساعدت بقوة فى إنشاء هذه التجارة بالرغم من الصعوبات والعراقيل التى كان يثيرها فى طريقى — والتى لا حصر لها — حكام سنار الذين أرادوا أن يحتكروا تجارة سن الفيل لحسابهم منذ أن علمو بنجاحى فى الحملة الأولى التى قمت

---

(١) Brun—Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p. p. 1—12.

(٢) Idem.

بها لهذا الغرض . »[1]

أما عن الأهداف الأخرى (الانسانية) التى كان « براون روليه » — على حد قوله - يهدف إلى تحقيقها إلى جانب المنافع والمكاسب المادية من وراء تعامله مع سكان هذه المناطق البعيدة من أعالى النيل ، واندماجه فى حياتهم ، فقد عبر عنها بقوله « لقد سعدت بإدخال المبادى الأولية للمدنية إلى هذه الشعوب البدائية (البعيدة) عن طريق إنشاء (خلق) تجارة سن الفيل بينهم . وشعرت بالراحة النفسية التى كان لها أثر كبير على نفسى أعظم من الفوائد المادية التى حصلت عليها . ولكن مع الأسف لم تكن أغراضى وجهودى مفهومة لدى غيرى، فلم أجد المعاونة الصادقة منهم ، بل على العكس واجهت الحقد والحسد والطمع وإهدار حقوق الانسان، وشغلت اكثر وقتى فى مواجهتها ومحاولة التغلب عليها . ومع ذلك لم تفارقنى شجاعتى ، ولم تحل هذه العقبات والعراقيل دون مواصلة السير مباشرة نحو هدفى الأسمى . وفى أثناء النضال كنت أسرى عن نفسى بالنتائج الطيبة التى ستعود على الانسانية من وراء هذا الكفاح . »[2]

---

(١) Brun Rollet : Le Nil blanc et le Souean, p. 38.

كذلك قوله « وفى سنة ١٨٤٥ عندما كنا نجوب النيل ونبيع بضائعنا كان رجال إبراهيم وخالد باشا يتبعوننا بقصد ابعادنا عن طريق التجارة . وهم بذلك يقللون من أهمية الفوائد التى هدف الأمراء إلى تحقيقها من كشف طريق النيل الأبيض . . . ومنذ وقت قصير تركت أيضا على مسيرة بضع فراسخ من أعلى فياك Fayak رجلا سوريا وبضع رجال كلفتهم بشراء سن الفيل والاستمرار فى الرحلة التى كنت قد قمت بها عام ١٨٤٤ على شواطىء الموج mo j لتأسيس علاقات تجارية مع قبائل اللوت . وقام رجالى بهذه السياحة وكان معهم زعيم من ذوى النفوذ كان قد رافقنى فى انتيب Antep . ولما تقابلنا ثانية عرفنى وذكرنى بما كنا قد فعلناه فى السياحة من قبل واكدلى أن الكيك رجعوا عن رأيهم فينا واصبحو لايصدقون باننا سحرة قد نلحق الضرر بهم ، وانهم سيقابلون رجالى بالترحاب ، وأنهم يعزون وفرة المحصول فى هذه السنة لتأثيرنا . وقد نجح السورى فى جمع مائة قنطار من سن الفيل وارسلها إلىَّ »

(Brun - Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p. p. 142, 149)

(٢) Brun - Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, pp. 12—16.

وجه الأهمية لرحلة « بران روليه » فى أعالى النيل : —

والواقع أن رحلة « بران روليه » فى النيل الأبيض ومناطق النيل العليا ليست مجرد رحلة عادية قام بها أحد المسافرين للحصول على الثروة من وراء اشتغاله بالتجارة مع سكان هذه الجهات ، وإنما هى أهم من ذلك وأعمق أثراً

فهذه الرحلة التى قام بها هذا المغامر الفرنسى تعبر فى حقيقة أمرها عن ظاهرة هامة وخطيرة فى تاريخ المناطق النائية من أعالى النيل ، فهى بداية تغلغل النفوذ الاستعمارى الأوروبى هناك الذى أخذت طلائعه الأولى تفد على هذه المناطق منذ الوقت الذى فتحت فيه حملات البكباشى سليم قبطان الكشفية فى النيل الأبيض (١٨٣٩ - ١٩٤٢) طريق الملاحة والتجارة إليها ، وكشفت عن غناها بمواردها الطبيعية بعد أن كانت شبه مجهولة وبعيدة عن أنظار الرحالة والمكتشفين الأوروبيين .

فحديث « بران رولية » - الذى سنفصله فى حينه - عن نشاطه التجارى فى مناطق النيل العليا ، وسعيه لإنشاء علاقات ودية مع سكان هذه المناطق من الزنوج ، واندماجه فى حياتهم حتى يولوه ثقتهم ويسلموه منتجات بلادهم ذات القيمة التجارية مثل الصمغ وسن الفيل مقابل أشياء بسيطة تافهة القيمة كالخرز الزجاجى ، وإنشائه المراكز التجارية لحسابه الخاص فى بعض جهات أعالى النيل ، ومساعدته لبعض البعثات والارساليات التبشيرية الكاثوليكية من النمسا على الاقامة فى هذه المراكز لمزاولة نشاطها التبشيرى وفى الوقت ذاته لمساعدته فى أعماله التجارية ، ثم نضاله بمعاونة بعض قناصل الدول الأوروبية فى الخرطوم الذين كان يتمتع بحمايتهم فى سبيل إرغام الحكومة المصرية على إطلاق حرية الملاحة والتجارة فى حوض النيل الأبيض ومناطق النيل العليا - كل ذلك يكشف عن روح الاستعمار الأوروبى الحديث الذى يهدف إلى استغلال الشعوب المتخلفة عن ركب الحضارة لتحقيق مصالحه الذاتية ،

بل سنرى أن « بران روليه » يتحدث فى كتاب رحلته بصراحة عن خطر تغلغل النفوذ الأوروبى فى أعالى النيل على السودان وكيان مصر ذاته فى المستقبل ، ويحذر الحكومة المصرية فى ذلك الوقت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر من هذا الخطر ، إذا ما تهاونت فى ادراك الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية لمناطق النيل العليا لكيانها الاقتصادى والسياسى (١) . ومن ثم فهو يؤيد قيام الوحدة بين شطرى الوادى ويدعو إلى أن تكون وحدة شاملة من الناحية السياسية والاقتصادية لحماية البلدين من خطر النفوذ والغزو الأجنبى ، وكوسيلة لازمة لاستثمار موارد السودان الطبيعية بالنظر لتقدم مصر النسبى (٢)

وبالجملة تضمنت رحلة « بران روليه » فى النيل الأبيض ومناطق النيل العليا الكثير من الحقائق التاريخية والاراء السياسية الهامة التى انفرد هذا المغامر الفرنسى بذكرها والتعبير عنها والمجاهرة بها دون سائر الرحالة الأوروبيين الذين سبقوه إلى زيارة شطرى الوادى تحت الإدارة المصرية الموحدة على عهد محمد على .

وهذه الأراء والمقترحات التى أدلى بها « بران روليه » فيما يتعلق بقيام الوحدة بين شطرى الوادى تدل فى واقع أمرها على صراحته وبعد نظره وثاقب فكره فى المجال السياسى والاقتصادى ، وأنه سبق بها عصره وزمانه.

وفوق ذلك فإن لرحلة « بران روليه » فى مناطق النيل العليا قيمة علمية وجغرافية لما تضمنته من المعلومات والحقائق الهامة عن حياة القبائل والشعوب الزنجية التى اختلط بها وتعامل معها فى هذه المناطق . فقد مكنه اندماجه فى حياة هذه القبائل ونجاحه فى تكوين علاقات ودية معها من القيام بدراسات جديدة عنها زيادة عن الدراسات التى قام بها غيره من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا جهات أعالى النيل .

---

(١) Brun-Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p. p. 315, 316,
(٢) Ibid, p. p. 316, 317, 318

وأكثر من هذا الكشوف الجغرافية الجديدة التى حققها « بران روليه » فى بعض اجزاء النيل العليا . إذ كان أول أوروبى كشف بحر الغزال وتوغل فيه بعيداً حتى « مشرع الرق »[١] .

وهكذا نرى أن رحلة « بران روليه » فى مناطق النيل العليا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ليست ذات أهمية اقتصادية وسياسية فحسب بل وعلمية كذلك .

لذلك لقى « بران روليه » Brun Rollet عند عودته إلى وطنه فرنسا ترحيباً كبيراً من الجمعية الجغرافية فى باريس التى اختارته عضواً عاملا بها، كما رحب به مجلس الفنون والعلوم والآداب هناك واختاره عضواً فيه[٢] .

كذلك عين مندوباً علمياً للمجمع العلمى فى سافوى مسقط رأسه . ثم اختير وكيل شرف للجمعية العالمية لتشجيع الفنون والصناعات فى لندن[٣] .

وتُعد رسائله لهذه الجمعيات العلمية ولغيرها من الهيئات التى كان « بران روليه » يراسلها ذات قيمة علمية جليلة لما تضمنته من المعلومات الجغرافية الهامة عن الجهات التى زارها فى السودان[٤] .

وبلغ من تقدير سردينيا لمجهودات « بران روليه » فى الحقل التجارى والجغرافى فى حوض النيل الأبيض ومناطق النيل العليا أن اختارته نائباً لقنصلها فى الخرطوم عام ١٨٥٦[٥] .

وقد نشر « بران روليه » رحلته فى مناطق النيل العليا عام ١٨٥٥ تحت عنوان "Le Nil Blanc et le Soudan". (Paris, 1855) ووصف مؤلفه

---

(١) Hill : Biographical dictionary of the Anglo-Egyptian Soudan, p. 89

(٢) Brun-Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p. p. 1—12.

(٣) Hill : Op. cit, p. 89. & Brun Rollet : Op. cit, p. p. 1—12

(٤) Idem.

(٥) Idem.

هذا بقوله « إنى أعتقد أن ماجاء فيه سيحقق أكبر فائدة لمن ستكون له علاقة بهذا الجزء من افريقية ، ولقد كان فى امكانى أن اخرجه فى عدة مجلدات ، ولكن حرصى على ألا انشر إلا ما شاهدته بعينى رأسى ولمسته يداى جعلنى اخرجه فى هذه الصورة(١) .

وفيما يلى عرض لأهم الموضوعات التى عالجها « بران روليه » فى كتاب رحلته السالف الذكر .

---

(١) Brun - Rollet : Op. cit, p. p. 12—16

وقد توفى بران روليه فى الخرطوم عام ١٨٥٨ متأثراً بآلام الفراق والحنين لوطنه ولم يتجاوز من العمر ثمانية واربعين عاماً . وقد علق « هل Hill » المؤرخ الإنجليزى المعروف على وفاته فى هذا السن المبكر نسبياً بقوله « إن عدم بقاء هذا المغامر الفرنسى (الذى يكشف كتاب رحلته عن ذكائه وقوة ملاحظته) على قيد الحياة طويلا يعد فاجعة مؤلمة »
(Hill : Op. cit, p. 89)

أولا — نشاط « بران روليه » التجارى
فى مناطق النيل العليا

بداية تغلغل النفوذ الاستعمارى الاوروبى فى أعالى النيل :

قبل الحديث عن نشاط « بران روليه » التجارى فى مناطق النيل العليا الذى يمثل فى حد ذاته بداية تغلغل النفوذ الاستعمارى الأوروبى فى أعالى النيل ، يجدر بنا عرض الظروف المحلية التى هيأت لهذا المغامر الفرنسى وغيره من الأوروبيين التغلغل إلى هذه المناطق البعيدة .

فمن الملاحظ أن مناطق النيل العليا (السودان الجنوبى) كانت شبه مقفلة فى وجه أى نشاط تجارى مع السودان الشمالى ، إذ اقتصرت العلاقات أو الصلات التجارية بين أقاليم السودان الشمالية والجنوبية على بعض الرحلات التى كانت تقوم بها قلة من التجار المغامرين من سنار وكردوفان ودارفور وتقلى إلى جهات أعالى النيل القريبة لجلب السلع والمنتجات ذات القيمة التجارية فى ذلك الوقت مثل العاج وجلود الحيوانات المتوحشة كالفيل وفرس النهر وكذلك السياط (الكرابيج) المصنوعة من هذه الجلود والعسل والسمسم والرقيق(١) ، مقابل بعض السلع والأشياء التى أغرم سكان هذه الجهات من الزنوج باستعمالها كالتبغ والبصل والخرز الزجاجى(٢) .

ومرجع هذا التراخى أو الضعف فى العلاقات التجارية بين السودان الشمالى والجنوبى هو الصعاب والمخاطر التى كانت تكتنف طريق الوصول إلى مناطق النيل العليا (السودان الجنوبى) .

---

(١) Brun - Rollet : Op cit, p. p.52. 100

(٢) Ibid, p. 99 & Pallme: Travels in kordofan, pp. 161—282.

والرحالة « بران روليه » الذى زار مناطق النيل العليا عقب حملات سليم قبطان الكشفية فى النيل الأبيض (١٨٣٩ — ١٨٤٢) يصور لنا الصعاب والاخطار التى كانت تهدد طريق الوصول إلى هذه المناطق قبل ذلك التاريخ بقوله « إن الرحلة التى كان يقوم بها بعض التجار من دارفور وبورنو إلى الجنوب كانت تستغرق خمسة وأربعين يوما وسط شعوب معادية وغابات لا يمكن اجتيازها إلا سيراً على الاقدام ، يصلون بعدها إلى شواطىء نهر المسلات للحصول على سن الفيل مقابل بعض السلع مثل الخرز الزجاجى » . ويضيف بران روليه إلى ذلك « أن هولاء التجار كانوا يوم رحيلهم يودعون من أقاربهم وداعاً حاراً مؤثراً كأنهم فى سبيلهم إلى الموت ، وكلهم يحملون الاكفان ليكفن من يظل على قيد الحياة منهم من تدركه المنية فى الطريق»(١) .

ولقد ظل الحال كذلك حتى حملات البكباشى المصرى سليم قبطان فى حوض النيل الأبيض ومناطق النيل العليا (١٨٣٩ — ١٨٤٢) التى كان من نتائجها الرئيسية والهامة فتح طريق الملاحة والتجارة إلى هذه المناطق .

ذلك أن الحملات الكشفية التى قادها هذا الضابط المصرى (سليم قبطان) فى النيل الأبيض ومناطق النيل العليا قد أسفرت إلى جانب المعلومات والحقائق العلمية والجغرافية الهامة التى زودت بها علم الجغرافيا ، عن التحقق من غنى هذه المناطق الجنوبية بثرواتها النباتية والحيوانية ذات القيمة التجارية .

حقيقة أن يوميات الحملة الثانية (١٨٤٠/١٨٤١) التى كتبها المهندس الألمانى « فرن » أحد الأوروبيين المرافقين لها لم تنشر إلا فى عام سنة ١٨٤٨ كما أن تقرير زميله المهندس الفرنسى «دارنو» فى هذه الحملة ظل خطيا ولم ينشر هو الآخر فى حينه، إلا أن أخبارهم الشفوية وما صاروا يتحدثون به هم وغيرهم من

---

(١) Brun-Rollet : Op. cit, p. p. 101—3.

الرجال الذين رافقوهم فى هذه الحملة الكشفية عن وجود الفيلة والماشية والطيور وغيرها من الحيوانات المستأنسه والمتوحشة فى هذه الجهات بكثرة عظيمة ، وما أتوا به من سن الفيل فى المراكب التى أقلتهم - كل هذا أقنع سكان الخرطوم وبخاصة التجار والمغامرين الأوروبيين منهم وكذلك رجال الحكومة بعظم الفوائد المادية التى يمكن أن يجنوها من وراء إرسال حملات تجارية إلى المناطق الجنوبية(١) :

فكان أن توالى إرسال السفن من الخرطوم فى النيل الأبيض وإلى جهات أعالى النيل لجلب السلع والمنتجات التجارية التى اشتهرت بها هذه الجهات ، وبخاصة سن الفيل .

ومديرو الخرطوم هم الذين كانوا يقومون فى أول الأمر بإرسال الحملات التجارية إلى مناطق النيل العليا ، وذلك فى العشر سنوات التالية لحملات البكباشى سليم قبطان الكشفية فى النيل الأبيض (أى فى الفترة بين ١٨٤٢ ، ١٨٥٢) ، ولم يكن ينافسهم فى هذا الميدن سوى صاحبنا « بران روليه Brun Rollet » وشريكة لافارج La Fargue اللذين كانا على درجة كبيرة من المهارة والنشاط(٢) .

فقد إستطاع هذا المغامر الفرنسى فى هذه الفترة على الرغم من الصعوبات التى أقامها حكام السودان فى ذلك الوقت فى وجهه أن يقيم علاقات تجارية على نطاق واسع مع قبائل وشعوب بعض مناطق النيل العليا مثل الشلك والدنكا والنوير والبارى جنى من ورائها أرباحاً كبيرة ، إذ كان كما أسلفنا القول يحصل منهم على سن الفيل بمقادير وفيرة مقابل بعض الهدايا والسلع الزهيدة القيمة مثل الخرز الزجاجى الذى أغرم هؤلاء الزنوج باستعماله للزينة .

---

(١) دكتور نسيم مقار . البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل — ص ١١٣ — ١١٦ .

(٢) وثيقه رقم ٢٨٣ بتاريخ ١٤ جمادى الأول سنة ١٢٦٠ — دفتر رقم ٤٧٦ صادر ديوان المعية .

Deherain : Le Soudan Egyptien Sous Meh. Ali, pp.339—341

وأثار هذا النجاح الذى احرزه « بران روليه » فى تجارته مع سكان حوض النيل الأبيض ومناطق النيل العليا اطماع التجار الأوروبيين الذين كانوا قد أخذوا يفدون على الخرطوم منذ أن فتح طريق الملاحة والتجارة فى النيل الأبيض ، وتطلعوا إلى القيام برحلات تجارية مماثلة لرحلاته . ولكنهم أخذوا فى الوقت نفسه يلحون على الحكومة المصرية بضرورة إطلاق حرية الملاحة والتجارة فى هذه المناطق الجنوبية التى احتكرها الحكمداريون والمديرون فى السودان ، مستغلين ظروف بعدهم عن اشراف حكومة القاهرة المباشره ، وجنوا من وراء ذلك أرباحاً طائلة . ومن هؤلاء الحكمدار عبد اللطيف باشا (١٥٤٩ — ١٨٥٢) الذى اشتهر بمعارضته إبطال احتكار الحكومة المصرية الملاحة والتجارة فى النيل الأبيض ، وبتدخله فى معاملات الأجانب التجارية بقصد إيذائهم ، الأمر الذى أثار ضده احتجاج قناصل الدول الأوروبية وعلى رأسهم دكتور ريتز Reitz قنصل النمسا فى الخرطوم ، وجعلهم يتمسكون بما نصت عليه اتفاقية عام ١٨٣٨ الدولية من حرية الملاحة والتجارة فى جميع ممتلكات الدولة العثمانية(١) وتزايدت شكاوى التجار الأجانب وعلى رأسهم «بران روليه» ومعهم قناصلهم فى القاهرة والخرطوم ضد هذا الحكمدار الذى استدعاه الخديو عباس باشا من الخرطوم ، وانتهى الأمر بإعلان حرية الملاحـــة والتجارة فى النيل الأبيض فى يناير سنة ١٨٥٢(٢) . وترتب على ذلك أن زاد نشاط التجار الأجانب فى هذه الجهات بحيث شمل مناطق بعيدة من أعالى النيل فى بلاد الفرتيت وحوض بحر الغزال وبحر الجبل ، وأقاموا لهم مراكز تجارية

---

(١) Taylor : Journey to Central Africa, or, life and landscapes from Egypt to the negro kingdoms of the White Nile, p. p. 387—8.

(٢) الدكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان . . . (طبعة ١٩٥٧) ص ٧٦ — ٧٧ .

فى مواقع هامة مثل غندكورو التى غدت المركز الرئيس لتجارة العاج فى هذه المناطق الجنوبية فى الفترة بين ١٨٥٠ ، ١٨٦٠ (١) .

وبالجملة فقد أخذ نفوذ الأوروبيين منذ ذلك التاريخ يتغلغل فى جهات أعالى النيل عن طريق نشاطهم التجارى . وقد كان بران روليه ـ كما مر بنا ـ فى مقدمة هؤلاء الأوروبيين ورائدهم الأول . بل إن نجاح حملاته التجارية فى مناطق النيل العليا كان من أكبر العوامل المشجعة لغيره من التجار والمغامرين الأوروبيين على المجىء إلى هذه المناطق لمزاولة نشاطهم التجارى أو التبشيرى، وبخاصة بعد أن أعلنت الحكومة المصرية حرية الملاحة والتجارة فى النيل الأبيض .

---

(١) والعاج كان يمثل السلعة الرئيسية التى يهدف تجار الخرطوم وبخاصة الأوروبيين منهم إلى الحصول عليها فى أول الأمر من وراء مطالبتهم باطلاق حرية الملاحة والتجارة فى النيل الأبيض على الأقل فى الفترة بين ١٨٤٢ ، ١٨٥٤ . لكن سرعان ما تحول الاهتمام من جمع العاج إلى قنص الرقيق . فقد كان من الطبيعى أن يتناقص عددا الفيلة بمضى الزمن ، وينفذ المخزون من العاج فى مخازن الأهالى ، ولم يعد فى استطاعة التجار تحمل نفقات حملاتهم التجارية إلى هذه البلاد البعيدة لمدة طويلة ، ولكى يتجنبوا الخسارة تحولوا إلى المتاجرة فى الرقيق ، وإن كانوا قد ظلوا فترة من الوقت يخفون نشاطهم الحقيقى ، لكن سرعان ما كشفوا النقاب عن طبيعة هذا النشاط عندما ايقنوا أن الرقيق أكثر ربحا من العاج ، وقنصه أو الحصول عليه أيسر من صيد الفيلة .

وهكذا تفتحت عن طريق النيل الأبيض افاق جديدة لتجارة الرقيق ، واتسع نطاقها مما كان له أثره الواضح فى استفحال خطرها وخطر القائمين بها بحيث أصبحوا فيما بعد قوة لايستهان بها فى مقاومة الحكم المصرى فى السودان حينما عمل على محاربتها . ثم تبلورت الأحداث فى قيام الثورة المهدية وانضمام تجار الرقيق إليها وقد كانوا من أشد المؤيدين لها رغبة فى إبعاد هذا الحكم عن البلاد .

ومهما يكن من أمر هذه النتائج البعيدة المدى التى ترتبت على فتح طريق الملاحة والتجارة فى حوض النيل الأبيض على أثر حملات البكباشى سليم قبطان الكشفية فى هذا النهر ، فإنه مما لا شك فيه أن هذا الفتح — وإن استغله الأوروبيون لمنافعهم الشخصية وأغراضهم الاستعمارية لحسابهم أو لحساب دولهم بعد ذلك — فانه نجم عنه نشاط حركة التجارة فى مناطق النيل العليا وتقوية الروابط والصلات التجارية التى ينبغى أن تكون بين السودان الشمالى والسودان الجنوبى .

(دكتور نسيم مقار : البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل ص ١١٩) .

ومن ثم فإن رحلات « برات روليه » فى مناطق النيل العليا تعد فى حد ذاتها بداية تغلغل النفوذ الاستعمارى الأوربى إلى هذه المناطق .

وأحاديث هذا المغامر الفرنسى عن نشاطه وجهوده فى إقامة علاقات ودية مع القبائل الزنجية استطاع من ورائها أن يحصل على السلع والمنتجات ذات القيمة التجارية التى اشتهرت بها بلادهم مقابل أشياء تافهة ، وأن يقيم مراكز تجارية فى بعض المدن الهامة التى شجع بعض الإرساليات التبشيرية الكاتوليكية على المجىء اليها والإقامة فيها لمزاولة نشاطها التبشيرى بين الزنوج ولمعاونته فى نشاطه التجارى هناك . وكذلك ما ذكره عن سعيه مع التجار الأوروبيين وقناصلهم فى القاهرة والخرطوم لإطلاق حرية الملاحة والتجارة فى مناطق النيل العليا — هذه الأحاديث تصور فى حقيقة أمرها الطابع الذى تميز به هذا التغلغل الاستعمارى الأوروبى فى هذة المرحلة الأولى من دخوله هذه المناطق .

يضاف إلى ذلك أقوال « برات روليه » نفسه الصريحة فى خطر تغلغل النفوذ الفرنسى والانجليزى التجارى والمعنوى إلى هذا الجزء من حوض النيل على كيان مصر فى المستقبل ، والتى سنعرض لها بالتفصيل فى حديثه عن أهمية الوحدة بين شطرى الوادى .

استغلال الزنوج فى الحصول على خيرات بلادهم :-

لقد عبر « برات روليه » صراحة عن أطماعه وأهدافه الحقيقية من وراء حرصه على كسب ود القبائل والجماعات الزنجية المختلفة التى التقى بها فى مناطق النيل العليا ، بل والمكاسب المادية التى حققها عن طريق استغلال هؤلاء الزنوج بقوله « لقد اكتسبت ثقة الشلك بعد أن أعطيتهم قماشا وتبغا وبصلا — وهم يحبونه كثيراً — وبفضل هذه الهدايا التى سرت بها نفوسهم واغتبطت لها قلوبهم تمكنت من التعمق فى حياتهم ، والحصول على سن الفيل و« الكرابيج » المصنوعة من جلد هذا الحيوان وجلد فرس النهر والصمغ مقابل ما أعطيته

لهم من الخرز الزجاجى (١) ،

وقوله « ولقد قمت بعدة سياحات كنت أدير خلالها الحملات (التجارية) بنفسى ، وأحاول أن أنشىء علاقات طيبة مع القبائل فى الداخل لتحسين تجارة سن الفيل وزيادة حجمها . وفى السنوات الأولى من رحلاتى الطويلة أعنى عام ١٨٤٣ ، ١٨٤٥ لم تزد هذه التجارة عن مائة وثمانين أو مائتى قنطار سنويا ، ولكن ما لبث بعد ذلك أن زاد حجمها إلى ثمانمائة أو تسعمائة قنطار. ويمكننى أن أقول أننى ساعدت بقوة فى إنشاء هذه التجارة ...» (٢)

كذلك نجح هذا المغامر الفرنسى فى أن يؤسس له تجارة كبيرة فى الصمغ فى حوض النيل الأبيض بفضل تأثيره على الشلك وغيرهم من المواطنين الذين تتوفر أشجار السنط فى بلادهم . وفى هذا المعنى يقول « لقد قمت منذ بضع سنوات برحلات متوالية فى بلاد الشلك لكى أعرفهم بقيمة غابات السنط (أشجار الصمغ) التى تحتل جزء من أراضيهم ، وأجعلهم يقدرون أهميتها (التجارية) فقد كان الصمغ فى هذه الجهات لا تفيد منه التجارة حتى ذلك التاريخ ، لأنه لا رجال الحكومة الذين يجمعون الضرائب ولا التجار الأجانب يجرءون على جمعه من المناطق الخارجة عن نفوذ الإدارة المصرية.» (٣)

ثم يقول « ولكن منذ ذلك الوقت الذى عرف فيه الشلك عن طريق قيمة الصمغ أخـــذوا يهتمون بجمعه . ومن ثم زادت تجارته إلى ألفى قنطار ... » (٤)

والواقع أن « بران روليه » لم يكن يخشى منافسة أحد فى تجارة الصمغ التى أنشأها فى حوض النيل الأبيض للاعتبارات السابقة التى ذكرها ، ومن ثم كان دائما يتوقع النجاح والربح الوفير من وراء أى جهد يبذله فى هذا

---

(١) Brun-Rollet : Op cit, p. p. 53—54.

(٢) Brun-Rollet : Le Nil blanc et le Soudan, p. 33

(٣) Ibid, p. p. 53 — 54

(٤) Ibid, 74.

السبيل . وقد عبر عن ذلك صراحة بقوله « وبما انى كنت أعتقد بأنه فى الإمكان أن أوسس تجارة صمغ مربحه فى هذه الجهات ، حيث لم يعد هناك ما اخشاه من منافسة التجار أو من العوائق التى تضعها الحكومة أمامى ! فقد قبلت العروض التى قدمها لى شيخ مقيم فى « دافورى Dafouri » على مسيرة يوم من شاطىء النيل بالقرب من جبال كورون Koron ، وعهدت إلى رجل من اتباعى بالسفر ومعه كميات كافية من المرجان والكهرمان والفضة التى اتاجر فيها ، على أن يلتقى بى بعد ثلاثة اشهر لا تسلم حمولة الصمغ التى يجب أن يكون قد أعدها خلال هذه الفترة .[١] »

ولم يقتصر نشاط بران روليه التجارى واستغلاله لخيرات البلاد على القسم الجنوبى من حوض النيل الابيض الذى لم يكن داخل نطاق الادارة المصرية ، بل لقد امتد هذا النشاط وذلك الاستغلال حتى شمل مواطن البارى فى الجنوب وهى أقصى ما وصلت إليه حملات البكباشى المصرى سليم قبطان فى تقدمها جنوبا للكشف عن منابع النيل[٢] .

فقد ورد على لسان هذا المغامر الفرنسى ما يفيد أنه وصل إلى هذه الجهات النائية من أعالى النيل حيث سعى إلى تطبيق سياسته الاستغلالية السالفة الذكر التى تقوم على كسب ود الزعماء والتعمق فى حياتهم العامة والخاصة بقصد التأثير عليهم فى الحصول على حاجته من خيرات بلادهم ومنتجاتها ذات القيمة التجارية باشياء تافهة القيمة . فهو يقول « لقد عملت على أن انشىء مع أهل البارى علاقات ودية واتخذ من بينهم اصدقاء ذوى نفوذ ونشاط فى مجال التعامل التجارى يمكننى الاعتماد عليهم فى الوساطة (التجارية) بينى وبين الشعوب الأخرى التى تقطن فى الداخل . أو بعبارة أخرى استعين بهم كحماة ذوى همة لرجالى الذين سأتركهم فى

---

(١) Brun-Rollet : Op cit, p. 61.

(٢) Brun-Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p. p. 186, 204

هذه الجهات لمواصلة شراء ما يلزمنى من سن الفيل لحين عودتى بقواربى .
وقد وجدت فى أخ الملك « بلينيا Bellenia »[١] يدعى « نيجويلو Niguello » هذه الخصائص والمميزات، وأصبح هذا الرجل هو المدافع عن نشاطى التجارى والداعى له . . . وبفضل معاونته نجحنا فى تأسيس مركز تجارى وإقامة بعثة تبشيرية كاثوليكية فى « غندكورو Gondokoro[٢] » .

قدوم البعثات والارساليات التبشيرية إلى مناطق النيل العليا :—

وهذه البعثات والارساليات التبشيرية الأوروبية أخذت تفد على مناطق النيل العليا مع التجار والمغامرين الباحثين عن الثروة منذ أن فتحت حملات البكباشى سليم قبطان طريق الملاحة فى هذه المناطق (١٨٣٦ - ١٨٤٢)

وقد وجدت الطليعة الأولى من هذه البعثات التبشيرية فى مناطق النيل العليا — وكانت نمساوية — العون من « بران روليه » الذى ساعدها فى إنشاء مركز لها فى مواطن البارى ، بيد أنه أفاد من وجودها فى نشاطه التجارى هناك .

ويشرح لنا « بران روليه » ظروف مجىء هذه الطليعة الأولى من المبشرين النمساويين إلى مناطق النيل العليا فيقول : « فى عام ١٨٤٦ أرادت الدعاية الكاثوليكية النمساوية أن تؤسس لها مركزاً على النيل الأبيض ، فأرسلت لذلك الأب « ريللو Rhillo » وهو من الجزويت . ثم لحق به أربعة مبشرون . ولكن

---

(١) و « بلينيا » هذه كما وصفها « بران روليه » — من مدن البارى الرئيسية ، وتقع على مسيرة خمسة أو ستة فراسخ إلى الشمال من جزيرة جانكير عند خط عرض ٤ التى كانت آخر ما وصل إليه « دارنو » (وهو المهندس الفرنسى الذى كان يرافق البكباشى سليم قبطان فى رحلته الكشفية فى أعالى النيل (١٨٤٠/١٨٤١) ، وعلى مسافة أربعة أو خمسة فراسخ من الشاطىء الأيمن الذى تقع عليه أكواخ شعب « مارچو Mardjou » القريب من الشعوب الغنية بسن الفيل .

ويضيف بران روليه إلى ذلك أن هذا المكان (بلينيا) والأماكن المجاورة له قد أصبحت بالنسبة له مراكز لتجارة أخذت تتسع سنة بعد أخرى بفضل النشاط المتواصل لهذا الصديق الذى عثر عليه فى أثناء سياحته الأولى ١٨٤٤ .
(Brun - Rollet : Op. cit, p. 186.)

(٢) Brun—Rollet : Op. cit, p. p. 187, 192

توفى بعد بضعة شهور من وصوله الخرطوم (بالدوزنيتريا). وساءت أحوال المبشرين خلال عامين، ولم يبق للبعثة الكاثوليكية سوى منزل له حديقة تركته إدارة الدعاية التى لم تشأ أن تتحمل تضحيات أخرى، حتى جاءهم رئيسهم « اجناتيو Egnatio » الذى رجانى أن أضع تحت تصرفه فى النيل الأبيض سفينة ليظهر لرؤسائه فائدة البعثة، وكان ذلك مدة حكمدارية خالد باشا [١] ».

ويقول « بران روليه » : « ولكن « اجناتيو » سافر إلى أوروبا حيث استطاع أن يحصل على مبالغ من المال لتأسيس مركز دينى (تبشيرى) على النيل الأبيض . وقد بنى بالفعل فى « غندكورو » منزلا وقلعه محصنة بالمدافع وخمسين بندقية بجوار قطعة الارض التى اشتريتها . وبذلك نفذ المشروع الذى كنت أنا و « انجيلو Angelo » قد فكرنا فيه من قبل » .

ويفصح « بران روليه » عن حقيقة علاقته مع هذه البعثة التبشيرية — التى ساعدها كما قدمنا على إنشاء مركز لها فى « غندكورو » داخل مواطن البارى، وما كان من أمر استغلاله بعض افرادها مثل « انجيلو » السالف الذكر لخدمة مصالحه التجارية فى هذه الجهات — بقوله : « وقد صار « انجيلو » محبوبا من الاهالى حتى أن ميناء (مركز) « مارجو Mardjou » الذى لم يأته خلال عام ١٨٤٤ سوى عدد من أنياب الفيل قد أصبح يرد إليه الآن كل عام مقدار من سن الفيل يتراوح بين ٣٥٠ و ٤٠٠ قنطار ويقدر هذا المقدار تقريباً بضعف ما يمكن جمعه من الشعوب الاخرى القاطنة إلى الشمال [٢] » .

ويختم « بران روليه » حديثه عن هذه البعثة التبشيرية وما انتهى إليه أمر صديقه المبشر « انجيلو » الذى كان عونا له فى زيادة تجارته من سن الفيل فى مواطن البارى فيقول « وهذة الكمية من سن الفيل التى جمعتها عام ١٨٥١ وعام

---

(١) Brun—Rollet : Op. cit, p. 192.

(٢) Brun—Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p. 194

(٣) Ibid, p. 200.

١٨٥٢ ، وهى تظهر نجاح مشروعنا ، قد أثارت حقد وحسد الأفراد الذين ليس لديهم الشجاعة لأن يتعرضوا لمثل الاخطار التى نتعرض لها أو مثل المتاعب التى نواجهها، فكانوا يتحدثون عن« دون انجيلو Don, Angelo » باحتقار ، حتى إنهم اتهموا هذا المبشر الفاضل فى اخلاقه . وعندما سمع رئيسه بذلك دعاه للرجوع إلى الخرطوم، بيد أن رجوعه إليها أثار المتاعب والخصومات عليه ـ وقد كان قنصل سردينيا متحاملا عليه ـ ففضل العودة إلى البارى والحياة معهم على الاتصال ببنى جنسه من الاوروبيين . وما لبث أن توفى وسط هذا الشعب بعد أن غلب عليه الحزن والتأثر ، وقد حزن عليه شعب البارى حزناً شديداً ، كما أقيم له جناز فى الخرطوم ،وقد عرفوا قدره بعد ذلك واعتبروه الشهيد الاول للمدنية فى النيل الابيض (١)»

مطالبة الحكومة المصرية باعلان حرية الملاحة والتجارة فى مناطق النيل العليا :

وكما ساعد « بران روليه » البعثة التبشيرية الكاثوليكية النمساوية على انشاء مراكز لها فى بعض مناطق النيل العليا — وكانت هذه البعثة التبشيرية كما قدمنا تمثل بدورها طلائع تغلغل النفوذ الأوروبى فى هذه المناطق باسم الدين ـ فقد كان له كذلك دور ملحوظ فى النضال إلى جانب قناصل الدول الأوروبية وعلى رأسهم قنصل النمسا فى الخرطوم (دكتور ريتز Reitz)ضد رغبة بعض الحكماريين فى السودان فى احتكار التجارة والملاحة فى مناطق النيل العليا ، وبخاصة الحكمدار عبد اللطيف باشا (١٨٤٩ — ١٨٥٢)الذى اشتهر بعدائه وكراهيته للتجار الأجانب ومعارضته الشديدة لمزاولتهم أى نشاط تجارى فى هذه المناطق . وهو النضال الذى انتهى باجابة الحكومة المصرية لمطالب هؤلاء القناصل والتجار الأوروبيين وعلى رأسهم «بران روليه» باعلان حرية الملاحة والتجارة فى مناطق النيل العليا .وهذا العمل أو الجهد من جانب « بران روليه » لا يقل أهمية عن أعماله أوجهوده السالفة الذكر

---

(١) Brun-Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan p. p. 201, 204

من حيث أثرها فى زيادة تغلغل النفوذ والاستعمار الأوروبى إلى هذه المناطق النائية من أعالى النيل ، إن لم يكن أهم وأبعد أثرا ، إذ أن اعلان الحكومة المصرية حرية الملاحة فى مناطق النيل العليا قد فتح الباب على مصراعيه أمام التجار والمغامرين الأوروبيين لأن يتدفقوا على هذه المناطق ويتوغلوا فيها.

و«بران روليه». فى هذا الحديث يشرح لنا حقيقة هذا الدور الذى أسهم به فى تحقيق حرية الملاحة والتجارة للاوروبيين فى مناطق النيل العليا ، وما كان من نضاله وكفاحه أمام الحكمدار عبد اللطيف باشا ، وتحديه لأوامره، ومانتهى إليه امر هذا النضال والتحدى من تراجع هذا الحكمدار ومغادرته السودان فى آخر الأمر ، فيقول « اعتقد أنى شخصيا قد ساعدت على امتداد الملاحة فى هذه المناطق وجعل الملاحة حرة فى النيل (النيل الأبيض) . وبفضل الحماية التى منحتها وكيل قنصل النمسا وقنصل عام سردينيا ، إلى جانب معاونة ممثلى الدول الأوروبية الأخرى صارت التجارة حرة منذ سنتين . وهذه الحرية لم يكن من السهل الحصول عليها ، فقد استخدمت فى سبيل تحقيقها الحيلة والمقاومة ... والواقع أن عبداللطيف باشا اضطر أمام التحدى من جانبى إلى العدول عن معاملتنا بالمعاملة التى كان يعامل بها رعاياه . لقد أقسم بأغلظ الأيمان أنه سوف لا يرى أى مركب أوروبى فى النيل الأبيض بعد الآن ، لأنه كان مثل سلفه يريد أن يحتكر التجارة هناك لنفسه . ولما أجبر على العدول عن هذا الأمر أصدر قراراً بتكوين شركة تحت إدارته ، وأذاع على رعيته وعلى السوريين واليونانيين الذين تحت حمايته وكذلك على الأوروبيين منشورا أعلن فيه أن من حقه أن يحتفظ لنفسه بثلث ما تحمله الحملات التى تسير فى النيل الأبيض من محاصيل ، وأمرنى شخصياً بالخضوع لهذا الشرط ، وإلا جردنى من المكاسب التى كانت تعود علىّ من حملاتى التجارية فى هذه الجهات ، وحرمنى من الملاحة فى النيل الأبيض ، فأعلنت احتجاجى وأظهرت له بدورى رغبتى فى الانتفاع بحرية الملاحة والتجارة ، فرد علىّ مهدداً وأقسم بأنه سيعامل « دون

أنجيلو Don, Angelo » الذى ظل عند البارى بطريقة تسلب الشهوة من كل من تحدثه نفسه بالذهاب إلى مكانه أو تقليده فى عمله[١] » .

ويمضى « بران روليه » فى وصف تعنت الحكمدار عبد اللطيف ضده وضد الأوروبيين عموماً فيقول «وفى خطاب منه بتاريخ ١٣ نوفمبر سنة ١٨٥١ أعلن بصورة واضحة للعيان أنه سوف لا يكون مسئولا عنا أو عن أموالنا، إذا نحن خالفنا أوامره . وتجاوزنا الحدود التى رسمها لنا » .

ويستطرد « بران روليه » قائلا « ومن هذا الخطاب يتضح أنه كان راضياً عن أعمال السلب والنهب التى وقعت علىّ ... ولما علمت بأنه أمر بحراسة مصب النهر حتى لا أسافر ليلا ، اخطرته عن طريق المدير بأنه بمقتضى ما لىّ من حقوق سأخطره باليوم والساعة التى سأسافر فيها ، وبأن رحيلى لن يكون إلا نهاراً »(٢) .

ويعرض «بران روليه» لموقف وكيل قنصل النمسا من هذه الأزمة ومن تعنت عبد اللطيف باشا الظاهر فيها فيصفه بقوله « وفى ١٨ نوفمبر جاءنى وكيل قنصل النمسا الذى كنت أتمتع بحمايته ليخبرنى بأنه أمام عناد الباشا وتهديداته سيضطر إلى الاستسلام »(٣).

على أن «بران روليه» يكشف عن الدوافع الحقيقية من وراء اتخاذ وكيل قنصل النمسا هذا الموقف مع ما عرف عنه من معارضة شديدة لمبدأ عبد اللطيف باشا فى الاحتكار وتزعم القنصل النمساوى لحركة قناصل الدول الأوروبية فى الخرطوم والقاهرة فى المطالبة بإعلان حرية الملاحة والتجارة فى مناطق النيل العليا، فيقول« إن وكيل القنصل فى سبيل أن يخلص « انجيلو Angelo »رغب فى ألا أسافر ووافق على أن يرسل الحكمدار زورقاً لاحضار «انجيلو» والسلع التى امتلكها (من بلاد البارى) »(٤)

---

(١) Brun-Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p.p. 177—178

(٢) Ibid, p. 179.

(٣) Brun - Rollet : Op cit, pp. 179, 180

(٤) Ibid, p. 180.

ويقول بران روليه « ولقد رفضت الخضوع لهذه القرارات التى لم يؤخذ رأيي فيها وقاومتها ، وأظهرت استعدادى لمقابلة القوة بالقوة... وأمام عنادى أخذ عبد اللطيف باشا يساومنى فى أن يكون شريكاً لى فى التجارة ، وقد قامت حملته على أثر قيام حملتى التى كانت تضم أربع مراكب . ولكن سرعان ما عزل عبد اللطيف باشا وأصبحت الملاحة والتجارة فى نهر النيل الرئيسى (النيل الأبيض) حرة طليقة بناء على أوامر قاطعة ومحددة من خديو مصر [1] ».

وهكذا يكشف لنا « بران روليه » عن صفحة هامة من تاريخ الاستعمار الأوروبى فى أجزاء النيل العليا فى مرحلته الأولى ، تمثل بداية تغلغل نفوذ الأوروبيين إلى هذه الأجزاء ، وتعرض الظروف التى مهدت له والطابع الذى تميز به فى هذه المرحلة . ثم ما كان من إطلاق حرية الملاحة والتجارة فى مناطق النيل العليا الذى يعد فى حد ذاته نقطة تحول خطيرة وبداية صفحة جديدة فى هذا التاريخ لما نجم عنه من زيادة التغلغل الأوروبى فى هذه المناطق واتساع مجالاته وتعدد صوره وأشكاله .

والصفحة فى حد ذاتها هامة ويزيد من أهميتها أن صاحبها « بران روليه » الذى سجل أحداثها قد عاش وسط هذه الاحداث ، بل اشترك فيها وكان له — كما مر بنا — تأثير واضح فى بعض مجرياتها .

وأهمية رحلة « بران روليه » لا تقف عند هذا الحدّ ، بل نراه يتحدث فى صراحة عن خطر تغلغل النفوذ الفرنسى والإنجليزى فى أعالى النيل على السودان وعلى كيان مصر ذاتها فى المستقبل ، ويحبذ قيام الوحدة بين شطرى الوادى ، ويدعو إلى أن تكون وحدة شاملة من الناحيـــة السياسية والاقتصادية ، كضمان لحماية البلدين من خطر الغزو الخارجى ، وكوسيلة لاستثمار موارد السودان الطبيعية والنهوض به ، بالنظر إلى تقدم مصر النسبي التى كانت قد أخذت بأساليب المدنية الحديثة منذ أوائل القرن التاسع

---

(١) Brun—Rollet : Op. cit, p. p. 181 — 2.

من الملاحظ أن إعلان حرية الملاحة والتجارة فى النيل الأبيض واستدعاء عبد اللطيف باشا من السودان كان فى بداية عام ١٨٥٢ .

عشر ، ويبدو أن « بران روليه » قد أراد أن يظهر حسن نيته للحكومة المصرية التى يعمل داخل نفوذها مما يساعده على تحقيق أطماعه التجارية ، فى الوقت الذى كان يشجع فيه الإرساليات التبشيرية على إنشاء مراكز لها فى مناطق النيل العليا لما يناله ورائها من عون فى تجارته هناك فضلا عما يفيده من رفع ذكره فى أوروبا .

وهذه الآراء والمقترحات الخاصة بخطر تغلغل النفوذ الأوروبى فى أعالى النيل وتحذير مصر منه قد ضمنها « بران روليه » بحثه فى أهمية السودان لمصر وأثره على مستقبلها ، وهو أيضاً من الموضوعات الرئيسية التى عالجها فى كتاب رحلته السالف الذكر ، وسنتناوله بشىء من التفصيل لأهميته .

ثانيا — بحث « بران رولیه »

فى أهمية السودان فى مستقبل مصر وقيام وحدة بينهما

يعد هذا البحث الذى قام به الرحالة « بران روليه Brun-Rollet » (١٨١٠ — ١٨٥٨) من أهم الموضوعات التى عالجها فى كتاب رحلتـــه « Le Nil Blanc et Le Soudan » (1855).

وقد ضمنه مقدمة تاريخية تناول فيها أهمية السودان لمصر منذ أقدم العصور ليستدل بها على « عظم الدور الذى يمكن للسودان أن يلعبه فى تاريخ مصر ومستقبلها ». ثم عرض لخصائص ومميزات السودان الجغرافية وما يحويه من ثروات وموارد طبيعية ، خلص إلى امكان استغلال هذه الموارد والثروات فى ظل وحدة شاملة مع مصر ، من شأنها أن تنهض بشئون السودان وتعيد لمصر مجدها القديم بين الأمم ، فضلا عن حماية البلدين من خطر الغزو الخارجى والاطماع الأجنبية . وقد شرح « بران روليه » مقومات هذه الوحدة الشاملة وحدد معالمها الرئيسية ، وأوضح ما يجب على مصر أن تتخذه من خطوات عملية لتدعيمها ، وما يمكن أن تتبعه إذاء ما يعترضها فى هذا السبيل من صعوبات وعراقيل طبيعية تتعلق بصعوبة المواصلات بين البلدين ، مقدماً بعض المشروعات والمقترحات التى كان يراها كفيلة بالتغلب على هذه العقبات ومن أهمها إنشاء خط حديدى بين أسوان وبربر يكون اجدى عليها فى رأيه من مشرع حفر قناة السويس الذى لن يفيد منه على حد قولهَ إلا الأجانب .

والبحث كما نرى هام وخطير وستتضح لنا أهميته وخطورته من عرض تفاصيله :

١ — أهمية السودان لمصر منذ أقدم العصور — :

يقول «بران روليه» : « إن الدور الذى يمكن للسودان أن يلعبه فى تاريخ مصر ومستقبلها لا شك فى اهميته ، ولكى تكون لدينا فكرة واضحة عن هذا الدور يكفى أن نسرح النظر فى الصفحات القليلة التى تبقت لنا من تاريخ هذه البلاد (السودان) ، فسنرى فيها انها كانت غنية بمختلف أنواع المحاصيل الزراعية ، والمعادن كالذهب والحديد والنحاس ، والنباتات الطبيعية وغيرها . وإن شعوبا بعيدة وغير معروفة فى وقتنا الحاضر كانت تأتى من جميع الجهات سواء عن طريق القوافل الصحراوية أو بواسطة الأنهار — إلى أسواق هذه البلاد ، حيث تجد ما تستبدله بمنتجات مصر وسوريا والهند . وسنرى أيضاً أن تأسيس طيبة وهى المدينة المشهورة ذات المائة باب كان بفضل جالية نوبية (سودانية) تابعت مجرى النيل شمالا مخترقة شلالاته (جنادله) . هذه المدينة كانت الأولى التى فرضت على النهر مجراه ، وحولت المستنقعات المتعفنة التى كانت فى مصر إلى حقول خضراء تغطيها اغنى المحاصيل الزراعية »[1] .

ويختم « بران روليه » حديثه فى تاريخ العلاقات بين مصر والسودان منذ أقدم العصور بقوله : « إن التاريخ يعلمنا أنه طالما كانت هاتان الامتان (مصر والسودان) متحدتين عن طريق المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة بينهما ، وعن طريق الدين والاخلاق (العادات والتقاليد) ، استطاعت مصر أن تحتل مكان الصدارة بين الأمم ، وأصبح من العسير على أعدائها غزوها . ولم يقدر لمصر أن تسقط فى أيدى اعدائها إلا فى الأزمنة التى قطعت فيها علاقاتها بالسودان . فعندما نفى ابسماتيك السادس مائتى أسرة من طبقة المحاربين ، وغدت المملكة محرومة من حلفائها والمدافعين عنها ، حينئذ سهل على قمبيز غزوها . ومنذ ذلك التاريخ أصبحت البلاد تحكم بغير ابنائها وبدأت السيادة الأجنبية على أراضيها . »[2]

---

(١) Brun-Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p. p. 299, 300

(٢) Ibid, p. p. 300, 301.

٢ — خصائص البيئة الجغرافيـــة للسودان وغنى موارده الطبيعية :

ثم يتناول «بران روليه» فى بحثه خصائص البيئة الجغرافية للسودان ليستدل على غنى هذه البلاد بمواردها الطبيعية والفوائد التى يمكن أن تعود من وراء استغلالها والدور الملقى على عاتق مصر فى هذا السبيل فيقول « إن ثروة البلاد ترجع إلى خصب تربتها وموقعها الجغرافى وسطحها الطبوغرافى .وعلى أساس هذه الاعتبارات يكون السودان المصرى من أعظم بلاد الدنيا (الممتازة). ويكفى أن نلقى نظرة على الخريطة لنقتنع بذلك . فى محيط الدرجات الخمس من خط عرض ١٨° شمالا -- وهو الذى تنتهى عنده الأمطار الاستوائية — لغاية سنار تحت خط عرض ١٣° شمالا يتلقى نهر النيل ذخيرة من المياه من أربعة روافد تنساب فى سهول غنية بالغابات والأعشاب التى ترعى فيها قطعان متعددة . وهذه الأزرع (الروافد) تعطى لهذه البلاد الحياة والرخاء كما تفعل الدورة الدموية العادية بالكائنات الحية التى تعيش عليها.»(١)

خصوبة التربة :

ويدلل « بران روليه » ببعض الأمثلة على وجود مناطق خصبة للغاية فى جهات السودان يجود فيها الانتاج الزراعى دون حاجة إلى تكاليف أو نفقات، فيذكر : « أنه فى السهول التى يرويها نهرا « الدندر Dinder » و« الرهاد Rahad » بين النيل الأزرق والعطبرة تزرع دون تكاليف أجود أنواع القطن التى تستخرج منها تقاوى النوع المعروف باسم «محو» ، وقد كانت هذه التقاوى مشهورة للغاية قبل أن يفسد نوعها فى إقليم مصر ، كما يزرع السمسم الذى لا يزيد سعر الأردب منه (أو ما يعادل ١١٠ كيلوجرام) عن خمسة فرنكات ، وهو مثل القطن يرتفع ثمنه فى مصر إلى عشرة أمثال هذه القيمة .»(٢)

---

(١) Brun—Rollet : Op. cit, p. p. 300, 301.

(٢) ويقارن «بران روليه» بين الظروف الطبيعية للانتاج الزراعى فى السودان ومصر ، فيقول « إن تربة السودان مماثلة تماماً لتربة مصر من حيث خصوبتها وجودتها ، وبواسطة =

الثروة الغابية :

ويشير « بران روليه » إلى بعض جهات السودان التى تتوفر فيها الأراضى السهلة والغابات ، ويمكن لمصر أن تفيد فائدة كبيرة فى المستقبل من وراء استغلالها ، بقوله :

« فالنيل الأبيض ليس له شواطىء بالمعنى الصحيح ، إذ عندما تنحسر مياهه عن الشاطىء يترك مساحة من الأراضى على جانبيه يبلغ إتساعها فى أكثر الأوقات فرسخاً ، وتكون معدة إعداداً كاملا لإنتاج كل أنواع الغلات والمحاصيل الزراعية . هذه الشواطىء المتروكة الآن فى الإمكان تعميرها بعدد كبير من السكان لو أنه أعطيت لهم الحماية الكافية من الشلك ، وهذا لا يحتاج إلى أكثر من باخرتين مسلحتين لبضعة شهور من السنة ، ونفقات هاتين الباخرتين يمكن أن تعطى بسخاء من الرسوم التى ستفرضها على خشب البناء. وسوف تقوم ترسانة الخرطوم وسكان المدينة أنفسهم بجلب هذه الأخشاب من الغابات الجنوبية حيث تظلل أشجار الميموزا شواطىء النيل . وهذه العمل (جلب الخشب) يمكن أن يكون فى المستقبل مصدر ثروة لمصر المحرومة من تلك الأخشاب النافعة والتى تدفع فى الحصول عليها من الخارج ما يوازى وزنها فضة » (١)

ويتابع « بران روليه » حديثه عن الثروة الغابية فى السودان ووجوب استغلالها فيقول « ويمكن بنفس الطريقة استغلال الغابات الواسعة التى يحمل منها النيل الأبيض فى اثناء فيضانه فى كل عام جزوعاً ضخمة تستعمل فى أعمال

= أنهارها ونهيراتها يمكن الانسان أن يحصل على نفس المحاصيل التى تنتجها مصر إذا ما استخدمت وسائل الرى الصناعى . والسودان فوق ذلك يمتاز بالأمطار السنوية التى تجود بها السماء عليه ويستطيع أن يحصل بواسطتها على محاصيل وفيرة دون تكاليف أو جهد يبذل فى سبيل الحصول عليها » .

(Brun—Rollet. Op. cit, p. p 303, 304.)

Brun--Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p. 304. (١)

النجارة الضخمة ، فاشجار الجوز « والأكاجو Acajou » لا يمكن مقارنتها بالجزء الأكبر من هذه الأخشاب سواء فى متانتها أو فى جمال عروقها . وتوابيت مومياء الفراعنة القدماء هى عينات من تلك الأخشاب »(١)

الصمغ فى اقليم كردوفان :

ويتحدث « بران روليه » عن محصول الصمغ فى إقليم كردوفان وكيف يمكن مضاعفته إذا عنى بتيسير المواصلات التى تربط الإقليم بمصر فيقول « إن إقليم كردوفان ينتج فى العام من أربعين إلى خمسة وأربعين ألف قنطار من الصمغ تأتى بمبلغ يتراوح بين ثمانمائة الف ومليون فرنك . وهذا المبلغ يمكن أن يضاعف بمجرد أن تصبح وسائل النقل سهلة . أما الآن فإن القافلة التى تحمل الف قنطار لا يمكن أن تصل إلى القاهرة قبل ستة شهور . وفى أغلب الأوقات تبلغ السنة ، فى حين يمكن للقافلة من الخرطوم أن تصل إلى مصر فى خمسة عشر يوماً(٢)».

عناصر السكان ونشاطها الاقتصادى :

ويتناول « بران روليه » عناصر السكان المختلفة فى السودان المصرى من حيث نوع الحياة الاقتصادية التى تحياها بقوله « والسودان المصرى يسكنه مليون ونصف أو مليونين من السكان من عنصرين متميزين : سكان المدن والقرى وهم خليط من السودانيين والفونج والنوبيين الممتزجين بالعرب ، والآخرون رحل يتبعون تلك القبائل التى هاجرت على التوالى من الحجاز ابتداء من القرن الثالث عشر والرابع عشر . وهؤلاء يعيشون متنقلين فى المناطق الداخلية يرعون الماشية والقطعان المختلفة التى هى عبارة عن البقر والخيل والضأن والماعز ... الخ . والأولون يزرعون الأرض ولكن فى موسم الأمطار فقط الذى يبدأ فى آخر يونيو وينتهى فى سبتمبر .

---

(١) Brun-Rollet : Op. cit, p. 304.

(٢) Ibid, p. 305.

وعندما تبدأ بواكير الأمطار فى بلّ التربة يبذر أهل سنار الحبوب وهم يقومون بتطهيرها من الحشـــائش الطفيلية مرة أو مرتين فى السنة . ثم يحصدون المحصول فى أكتوبر ونوفمبر . ومع ذلك فهم لا يزرعون إلا عشر مساحة الأرض الصالحة للزراعة . وعندما يكون المحصول بدرجة معتدلة فإنه يكفى لتموين البلاد لمدة خمس سنوات . وفى السنوات العادية لا تساوى الحبوب الغذائية (الذرة البيضاء) التى يعيشون عليها أكثر من فرنك أو فرنك ونصف للكيس الواحد فى البلاد التى تزرعها . بينما يمكن أن يباع الكيس ذاته فى مصر بمبلغ يتراوح بين أثنى عشر وخمسة عشر فرنكا »(١) .

حاجة السودان إلى اسواق لتصريف سلعه ومنتجاته :

ثم يصف « برات روليه » حاجة السودان إلى اسواق خارجية لتصريف سلعه ومنتجاته فيقول «والسعر العادى للثور من عشرة إلى خمسة عشر فرنكا ، ومن تصورنا لهذا السعر الزهيد يسهل علينا أن نأخذ فكرة عن المدة التى يقضيها الزراع دون عمل وعن فقرهم ، وعن الفوائد التى يمكن الحصول عليها من وجود منافذ لتصريف هذه المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية فى الخارج »(٢) .

ويعجب « برات روليه » من أن محمد على لا يخطر بباله هذا الأمر حين لا يجد المال الذى يطلبه من السودان ، فهو يقول (أى برون روليه) « إنى أذكر أن محمد على باشا كتب يوماً إلى الحاكم العام (حكمدار السودان) خورشيد باشا « إنى لا أتصور كيف أنك فى كل مرة أطلب منك الضرائب تبدى لىّ ملاحظات بالفقر ، فقر الرعية التى تحكمها ، إن لديهم نيلين مع أنى هنا ليس عندى إلا نيل واحد . شغل هؤلاء الكسالى ، كما أفعلى أنا فى مصر »

---

(١) Brun—Rollet : Op. cit, p. p. 306. 307.

(٢) Ibid, p. p. 307, 308.

فرد عليه خورشيد بما يقرب من هذه العبارة « إن أهل سنار التابعين لىّ لو أنهم أنتجوا محصولا يزيد عشرة أضعاف عما يلزمهم ، فإنه حتى فى هذه الحالة لا يصبح لديهم سوى الحبوب والماشية ولا يكون عندهم ما يقدمونه من النقود »(١) . ويعلق « بران روليه » على رد خورشيد باشا هـــذا « أنه كان فى امكانه أن يضيف إليه « أن أرسلوا إلينا بعض المشترين الذين تبعث بهم فرنسا إلى موانيكم ومعهم المراكب ونحن نعطيكم عشرة امثال ما تطلبون . » (٢)

ويمضى « بران روليه » فى حديثة قائلا « إن محمد على كان قد طلب فى ذلك الوقت من ثلاثين الف إلى خمسين ألف رأس من البقر، وكان معظمها يموت فى الطريق من الجوع والعطش والتعب من طول المسافة التى تقطعها القطعان ، ولم يكن الوقت الذى تستغرقه فى الوصول إلى مصر يقل عن ستة أشهر . » ويعلق بران روليه على هذه الصعوبات فى نقل الماشية بين شطرى الوادى بقوله « إنه طالما لا ترفع هذه الحواجز (الجنادل) وتذلل عقبات الصحارى التى تحيط ببلاد السودان فإن هذه البلاد تصبح كالموانى التى ازدحمت بثرواتها وتحاصرها مراكب العدو لتنقض عليها وتستولى عليها . » (٣)

أهمية موقع السودان التجارى :—

وأخيراً يتناول « بران روليه » أهمية موقع السودان التجارى كملتقى لطرق تجارية هامة تربطه بواسطة النيل وفروعه المختلفة بمناطق وأقاليم مختلفة فى الجنوب الشرقى والجنوب الغربى والجنوب (من ناحية أعالى النيل بصفة خاصة) تمتاز بوفرة محاصيلها ومنتجاتها ذات القيمة التجارية كالذهب والمسك وسن الفيل والخيل وشمع العسل. وهو إذ يوضح اهمية هذا الموقع

---

(١) Brun-Rollet : Op. cit, p. p. 308, 309.

(٢) Ibid, p. 309.

(٣) Idem.

التجارى للسودان يشير على مصر أن تستغله وتقوم بالدور الذى تقوم به الممالك الأخرى المجاورة مع هذه المناطق الغنية التى لا تبعد كثيرا عن السودان، بل يدعو إلى أن يمتد نشاط مصر إلى تلك الممالك ذاتها بصورة أو بأخرى قبل أن يسبقها إلى ذلك غيرها من الدول الأوروبية مثل انجلترا وفرنسا فيكون الأمر بالنسبة للسودان ولها جد خطير .

فهو يقول « فلننظر أولا فى الفوائد التى يمكن أن تجنيها البلاد من موقعها الجغرافى ومن أنهارها . فأول ما يقابلنا شمال الخرطوم هو « الباره Albarah» الذى يقودنا إلى « تجرى Tigré » وإلى « جوندار Gondar » حيث نجد المسك والجلود المدبوغة وشمع العسل والبن الذى يباع هناك بسعر يتراوح بين ١٥ و ٢٠ سنتيم للرطل . وبواسطة النيل الأزرق نستطيع أن نتحكم فى أسواق وسط الحبشة مثل « كوديام Codiam » حيث يجتمع الجاله (وغيرهم) عدة مرات فى كل عام للتبادل التجارى . وعلى هذه الشواطىء المرتفعة نجد فيزوغلى حيث يمكن إنشاء أسواق تجارية يأتى إليها سكان (زنوج) مرتفعات الذهب فى « برتا Berta » والكماميل والجاله الذين هم بعيدون جداً عن طريق « كوديام » . وهؤلاء جميعاً يأتون حاملين السلع والمنتجات المختلفة، الأولون يحملون الذهب والآخرون يأتون بالخيول المطهمة وشمع العسل والذهب وسن الفيل الذى يصنعون منه أوتاداً كما كان يفعل سكان شواطىء النيل الأبيض قبل مجيئنا . وقد تمكن أحد ضباط الجيش المصرى واسمه حامد افندى أن يؤسس بسهولة منذ بضع سنوات علاقات مع هذه الشعوب فى الموقع الذى عهد إليه بحراسته بالقرب من المناجم الكائنة جنوب فيزوغلى، وكان هذا الموقع قد تأسس بمعرفة محمد على فى أثناء زيارته هذه المناجم عام ١٨٣٩ . وفى أقل من سنتين وبرأس مال يقل عن ٢٠٠٠ فرنك، كسب هذا الضابط المصرى أكثر من ٨٠٠٠٠ فرنك، وكان الجاله يأتون فى قوافل للمبادلة بهذه السلع المحترمة المذكورة آنفا مقابل الخرز الزجاجى والأقمشة [1] ».

---

(١) Brun-Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p.p. 310—312.

ويمضى « بران روليه » فى ذكر الأدلة على امكان نجاح مشروعات الحكومه المصرية التجارية فى المناطق المجاورة لأعالى النيل مشيراً إلى تجاربه الشخصية فى مناطق النيل العليا فيقول «ومما يلفت النظر عامة ونظر الحكومة المصرية خاصة فيما يتعلق بمصلحتها الذاتية، التجارة والملاحة فى النيل الأبيض. وبدون أن أكرر ما سبق أن ذكرته عندما رويت قصة سياحتى فى هذا الاقليم، يكفى المرء لأن يقتنع بقولى أن يتبع الروافد الثلاثة الرئيسية التى تصلح كلها للملاحة حتى قرب منابعها . فعن طريق السوباط يمكن الوصول إلى جبال « امادو Imadou » على الحدود الجنوبية لمملكة « كافا Cafa » وهناك يمكن أن تقوم تجارة مزدهرة لسن الفيل وتبر الذهب مع الزنوج الساكنين على الشواطىء ومع الجاله والشعوب التى فى الجنوب الغربى « لآديلز Adels » . وتجارة سن الفيل التى لم تكن تزيد مع سكان شواطىء الفرع الجنوبى عن ٢٠٠ قنطار زادت فى السنة الأخيرة بفضل الصلات التى اقمتها مع هؤلاء السكان عام ١٨٥٠ وعام ١٨٥١ الى ٨٠٠ قنطار اعطت لسنار رأس مال قدره ٤٠٠ ألف فرانك ولجمرك القاهرة خمسين ألف فرنك تقريبا . فكم سيكون عليه الحال لو اننا واصلنا تقدمنا إلى بلاد «الكويندا Kuenda »عند خط الاستواء الذين صادف رجالى عندهم عام ١٨٥١ تجاراً منافسين على علاقة بزنزبار . . كذلك لو صعدنا نهر« كيلك Keylak »حتى بحيرة «فترى Fetry » لامكننا أن نحتكر باسم مصر تجارة الصادر والوارد الغنية التى تقوم بها ممالك بورنو وواداى وباجرمه مع مراكش وطرابلس عن طريق الصحراء الكبرى رغم ما يكتنف هذا الطريق من صعاب ومخاطر .. كما انه لو واصلنا تقدمنا بعد ذلك إلى النهر الآخر الذى يأتى من جهة الجنوب حاملا إلى نهر « كيلك »أكبر قدر من مياهه لوجدت سنار رعاياها القدماء ، ولاستعادت تجارتها مركزها السابق هناك . »(١)

ويضيف «بران روليه» إلى ذلك « أن هذه الممالك التى ذكرناها دون

---

(١) Brun—Rollet : Op. cit, p. p. 312 — 314.

شك اغنى من السودان المصرى بنحو ثلاثة أو اربعة أضعاف . كما انها تفوقه من الناحية التجارية بما يقرب من هذه النسبة وتعود عليها التجارة بارباح عظيمة . فلو فرض أن تحققت المشروعات السالفة الذكر التى لا يجب اعتبارها مشروعات خيالية ، فسوف تعود على مصر بمنافع كبيرة اذا امتد نشاطها الى هناك وقامت برعاية هذه المشروعات التجارية »

٣ — أثر السودان على كيان مصر ومستقبلها : —

وأخيراً يحذر « بران روليه » فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الحكومة المصرية من اهمالها هـذا المصالح والمشروعات التجارية فى أجزاء النيل العليا والبلاد المجاورة لها ، وينبه إلى الخطر الذى يتهدد مصر فى المستقبل إذا تهاونت فى ادراك الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية لهذه المناطق بالنسبة لكيانها ومستقبلها السياسى والاقتصادى ، مشيراً بصراحة إلى الأطماع الأوروبية التى بدت طلائعها فى هذه الأجزاء البعيدة من أعالى النيل ، فيقول « وهل مصر بعيدة جداً عن منابع نيلها ؟ ! وهـــل هى أقل اهتماما بالحصول على هذه المنافع من فرنسا وانجلترا اللتين بذلتا منـذ السنوات الأخيرة جهوداً وتضحيات كبيرة لتأسيس تجارة هناك ، ولتقوية نفوذهما الأدبى فى هذه الجهات ..؟ ! لتعلم مصر جيـدا أنه لا ينبغى أن تنظر لسنار وأنهارها على أنها بلاد يجب إصلاحها او تجارة وملاحة يجب حمايتها فحسب ، وإنما الأمر بالنسبة لها هو توطيد الأمن على حدودها الجنوبية ، فجميع المؤسسات التى تنشأ فى جهات أعالى النيل عن طريق النهر ذاته يجب أن تكون مصرية ، ذلك أن الذين سيجيئون من طرابلس أوعن طريق النيجر للاقامة فى بلاد سنار سيتبعون حتما الدول التى تقدم لهم رءوس الأموال كما لا يمكن أن يرفض لهم طلب حرية الملاحة فى النيل ، بل قد يصبحون فى وقت من الأوقات سادة عليه[1] » .

---

(١) Brun-Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p.p. 315, 316

ويصور «بران روليه» خطر تغلغل التجارة الانجليزية بصفة خاصة على مستقبل مصر فيقول «إن وجود تجارة انجليزية كاسحة كرمال الصحراء تبتلع أمامها كل شيء كما تفعل الصحراء على جانبى مصر، ليس فيه خطر على مصر فيما يتعلق بمستقبلها فحسب، بل وعلى كيانها ذاته أيضاً[1]».

ويدلل بران روليه على أهمية سنار (السودان) فى مستقبل مصر بقوله: «فبواسطة سنار وأنهارها يمكن لمصر أن تستعيد مجدها القديم بين أمم العالم أجمع، وبواسطة سنار ذاتها يمكن للاسكندرية أن تفاخر وتردد فى وقت قريب أو بعيد ما ترددت لندن أو باريس فتقول، وأنا أيضا لى أتباعى الذين يسيرون فى فلكى وأعطى لهم الحياة والحركة». فبلاد الهند المصرية (سنار) التى تقع على الأجزاء العليا لنهرها فى انتظار الأساطيل السودانيه لتستعيد تجارة البحر الأحمر وتعيد أهمية الأسواق (المراكز) التجارية القديمة التى كان قد أقامها البرتغاليون على السواحل الشرقية لإفريقيا[2]».

ثم يؤكد «بران روليه» اهمية السودان فى مستقبل مصر فيقول: «وحتى لو اضطرت مصر الى أن تترك للاوروبيين أن يأخذوا الامتيازات التى يخولها لها موقعها الوسط عند ملتقى القارات الثلاث فإنه لا يجب عليها بحال من الأحوال أن تترك أحداً يعتدى على ممتلكاتها فى الجنوب[3]».

٤ — رأى «بران روليه» فى الوحدة بين مصر والسودان: —

ومن ثم فهو (بران روليه) يدعو لقيام وحدة شاملة بين السودان ومصر لتحمى شطرى الوادى شماله وجنوبه من خطر تغلغل النفوذ

---

(١) Ibid, p. 316.

(٢) Brun—Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p.p. 316-317

(٣) Ibid, p. 317.

الاستعمارى الأوروبى وضد أى غزو اجنبي ، وتعمل فى الوقت نفسة على تقدم البلاد والنهوض بشئونها المختلفة ، إذ يقول « لذلك يجب أن تكون سنار مصرية (تتمصر) ، وأن تدخل فيها مصر الصناعة والزراعة عن طريق جاليات مصرية يتزايد عددها هناك و تعمل على إدخال عاداتها و تقاليدها (مدنيتها) بين المواطنين ، على ألا يظهر هؤلاء المصريون أمام السودانيين كقاهرين غالبين ، وإنما كاصدقاء متحابين متحدين وحماة ضروريين (١) ».

أما دور السودانيين فى هذه الوحدة فقد عبر عنه « بران روليه » بقوله « كذلك يجب على السودانيين أن يصيروا مصريين (يتمصروا) ، وعلى استعداد لأن يقدموا عند اللزوم للوطن (الأكبر الموحد) خمسين ألف رجل يكونون على أهبة الاستعداد للسفر إلى مصر للدفاع عن سواحلها وموانيها (٢) » .

ولا يقف حديث « بران روليه » عن الوحدة بين السودان ومصر عند هذا الحد من الدعوة لها ، بل نراه يتعرض للمشكلات والعراقيل الطبيعية التى تعترض سبيلها ، ويقدم الحلول والمقترحات لتدعيمها وصيانتها . ومن أهم هذه المشكلات التى تناولها مشكلة المواصلات بين شطرى الوادى التى كان « بران روليه » يرى أن حلها أهم خطوة عملية فى سبيل تقوية العلاقات وتدعيم الوحدة بين مصر والسودان ، إذ يقول « وتستطيع مصر أن تحصل على هذه النتائج بسهولة إذا تغلبت على مشكلة المسافات (المواصلات) و تخلصت من العوائق الطبيعية التى تصنعها الصحراء والشلالات بينها وبين السودان ، وذلك بالاستعانة إذا ارادت بالصناعة الحديثة والعبقرية الأوروبية التى تعرف كيف تتغلب على هذه المشكلة ، وسوف يسمح لها حل هذه المشكلة بإنشاء المدن المزدهرة على الشواطىء البعيدة (فى أعالى النيل) حيث تعيش الأقوام البدائية (٣) »

---

(١) Brun-Rollet : Op. cit, p. 318,

(٢) Idem.

(٣) Brun-Rollet : Op. cit, p. p. 318, 319.

ثم يقلب «بران روليه» مشكلة المواصلات بين مصر والسودان وحلولها المختلفة ليصل إلى حل عملى أقل نفقة وأيسر تنفيـــذا ، فيقول « وازالة الشلالات كوسيلة مقترحة لحل المشكلة ستكون أكثر نفقة وأصعب تنفيذا وتأتى بأقل النتائج .. إذ أن ما يعمل لتخفيف حدة مسقط من المياه لا ينتج عنه إلا زيادة المسقط الذى يليه كما حصل فى أمبال Ambal التى هى أشد الاماكن هولا فى الشلال الثانى حيث اضطر محمد على أن يعدل عن المضى فى الاشغال التى كان قد أمر بالقيام بها فيه [1]

---

(١) Brun—Rollet Le Nil Blanc et le Soudan, p.p. 319,320

فقد أولى محمد على مشروع تحطيم هذه الشلالات (الجنادل) التى تعترض مجرى النهر عناية كبيرة حتى أعتبر نجاحه أمنية يود تحقيقها ، وبذل بالفعل جهوداً كبيرة فى هذا السبيل تشير إليها ترجمة هذا الأمر الذى بعث به لمختار بك من الأسكندرية بتاريخ ٢ ربيع الآخر سنة ١٢٥٤ ، وقد جاء فيه قوله « بما أن كسر وتحطيم العقبات الطبيعية فى الشلالات لم يزل الأمنية التى أريد تحقيقها فقد كتبت لولدى سعادة أحمد باشا وكيل الجهادية أمراً فى تاريخ هذا الأمر بطلب انتخاب سبعة يوزباشية من أصحاب المقدرة والكفاءة فى انجاز الأعمال لتعيين يوزباشى واحد منهم لكل من هذه الشلالات ثم باشعارى بخبر انتهائه من انتخابهم وتهيئتهم فى هذا السبيل حتى نكتب اوامر مؤكدة من قبلى لمدير اسنا ومأمور دنقله وبربر وجاعلين بطلب تقديم العمال والمهمات اللازمة لهذا الغرض . غير أنه لما كان من اللازم تعيين هذه العقبات التى يجب تخطيها وكسرها من الشلالات وذلك بالاشارة إليها فى رسم هندسى يرسم فى هذا السبيل فينبغى مقابلة الباشا الموما إليه والاستفهام منه عن أمر انتخابه وتهيئة أولئك اليوزباشية ثم عن أمر تهيئة المهمات اللازمة فى هذا الخصوص كالبارود والمرزبات مثلا حسب تعريف لينان أفندى نظرا لأن لديه معلومات عن تلك الجهات . ثم تعيين مهندس لكل يوزباشى من أولئك اليوزباشية حسب مايستحسن فى هذا الخصوص . وخلاصة القول أن يعين مهندسون من مهندسينا أولاد العرب فى معية لينان أفندى على قدر الحاجة . ثم يؤخذ الأفندى المرقوم إلى هناك مع المهندسين على أن يقوم هؤلاء برسم الأماكن المراد تحطيمها وكسرها من الشلالات ويريها للمهندسين ويصفها لهم . ثم يترك المهندسين هناك ويعود إلى هنا . ومن البديهى أنه سيقال إن من المتعذر القيام بهذا العمل الآن نظراً لفيضان النيل ، ولكن بما أن الشروع فيه الآن من شأنه أن نتمكن من إعداد المهمات والعمال اللازمة فى هذا السبيل وننتهى من ذلك فى بحر بضعة أشهر لغاية انتهاء الفيضان عدا ما فيه إمكان كسر وتحطيم العقبات التى لا تغرقها مياه الفيضان ، فانى أطلب منكم الشروع فى العمل كما هو مذكور فى الأمر .

(ترجمة الأمر رقم ١٠٣٣ بتاريخ ٢ ربيع الآخر سنة ١٢٥٤ — دفتر رقم ٣٠١ معاونة جهادية بارشيف عابدين) .

ويخلص «بران روليه» من هذا الحديث بعدم جدوى المشروع الخاص بإزالة هذه الحواجز الطبيعية التى تعترض مجرى النهر بين شطرى الوادى ، ومن ثم يجب أن يتجه التفكير إلى مشروع أجدى وأنفع من الناحية العملية أشار إليه بقوله « وإن إنشاء خط حديدى بين اسوان وإقليم بربر سيكون أيسر وأقل تكاليف من إزالة الشلالات . ومثل هذا المشروع سيحقق فائدة عظيمة ، إذ سيقصر طريق سنار مذه خمسة عشر يوما بالنسبة للمسافر العادى وكذلك بالنسبة للبضائع التى تظل فى أغلب الأحيان معرضة للشمس لمدة تتراوح بين ثلاثة أشهر وأربعة لعدم وجود الإبل اللازمة فى ذلك الوقت لنقلها[1] » .

ويصور « بران روليه » الفوائد التى يمكن لمصر والمدنية أن تحققها من وراء إنشاء خط حديدى يربطها بالسودان ، فيقول . « وإن خطاً حديدياً يربط مصر بالسودان سيقرب حدودها إلى منابع هذه الأنهار (الأنهار التى تربط أجزاء النيل العليا بالمناطق والأقاليم المجاورة التى سبق الاشارة إليها)... وإذا أضفنا إلى ذلك إنشاء باخرة للركاب فإن الخرطوم ستصبح على مسافة أربعة أيام من أسوان وستة أيام من بورنيو . وحينئذ تصبح إفريقيا الوسطى وليس بها سر محجوب عن العلم ، كما لن يكون فى بلادها أقوام بدائيون »[2] .

وأخيراً يقارن « بران روليه » (فى أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر) بين مشروع هذا الخط الحديدى ومشروع حفر قناة السويس الذى لم تكن مصر قد تورطت فى تنفيذه بعد ، من حيث نفعه على مصر ، فيقول : « وهذا المشروع الخاص بإنشاء خط حديدى يربط مصر بالسودان

---

(١) Brun-Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan. p. 320.

(٢) Brun-Rollet : Le Nil Blanc et le Soudàn, p. 321.

سيكون أجدى على مصر وأنفع لها من شق خليج السويس الذى ستفيد منه أوروبا أكثر منها[1] » .

وبهذا ينتهى بحث هـــذا الرحالة الفرنسى « بران روليه » « فى أهمية السودان فى مستقبل مصر » الذى ضمنه كتاب رحلته فى النيل الأبيض ومناطق النيل العليا ، واعتمد فيه على تجاربه الشخصية فى هذه المناطق النائية كرحالة ، ومغامر ، وتاجر مناضل نشيط بما فى الكلمة من معنى ، ومن هنا كان البحث هاماً . وهو كما نرى قد تضمن بعض الحقائق الخطيرة والجريئة التى سبق بها عصره ودلت على بعد نظره وثاقب فكره فى الشئون السياسية والاقتصادية، فضلا عن صراحته التى كشف عنها فى كثير من مواضع البحث .

والحق يقال أن « بران روليه » فى بحثه هذا كان على غير ما هو متوقع من رحالة أوروبى مثله هدفه الأول من وراء رحلته إلى أعالى النيل الاستغلال والكسب المادى عن طريق التجارة ويمثل فى واقع أمره طلائع تغلغل النفوذ الأوروبى إلى هذه الجهات ـ جاداً صريحاً مخلصاً فى إبداء أرائه أميناً فى إبراز الحقائق ، وإن تكن هذه الآراء أو الحقائق تتعارض ومصلحة وطنه وبنى جنسه التي كانت ترمى إلى أن يفتح لهم مجال التغلغل فى هذه المناطق .

---

(١) Brun-Rollet : Op. cit, p. 321.

ثالثاً — دراسات « بران روليه »

العلمية والجغرافية فى النيل الأبيض ومناطق النيل العليا

بالاضافة إلى احاديث « بران روليه » عن نشاطه التجارى فى مناطق النيل العليا التى تضمنت الكثير من المعلومات والحقائق الهامة عن بداية تغلغل النفوذ الاستعمارى الأوروبى إلى هـــذه المناطق ، وكذلك بحثه فى أهمية السودان فى مستقبل مصر السياسى والإقتصادى ، قام هذا الرحالة الفرنسى ببعض الدراسات العلمية والجغرافية فى النيل الأبيض ومناطق النيل العليا تتعلق بحياة القبائل والشعوب الزنجية المختلفة التى التقى بها وتعامل معها تجاريا مثل الشلك والدنكا والنوير والبارى .

وقد مكنته العلاقات الودية التى نجح فى اقامتها مع هذه القبائل فى أثناء تعامله التجارى معها ، واندماجه فى حياتها العامة والخاصة من الوقوف على معلومات جديدة عن نظم معيشتها والعادات والتقاليد السائدة بينها زياده عن المعلومات التى حصل عليها غيره من الرحالة الذين قاموا ببعض الدراسات فى هذه المناطق البعيدة من أعالى النيل .

من ذلك أنه عرض لنظام الحكم عند الشلك الذى وصفه « بالنظام الاتوقراطى » ، كما عرض لصور من عدائهم التقليدى مع البقارة ، ولمظاهر حياتهم الإقتصادية ، وعنى بصفة خاصة بحرفة صيد الفيلة السائدة فى هذه الجهات ، فأشار إلى الوسائل المختلفة التى يتبعها هؤلاء الزنوج فى صيدها أو الايقاع بها ، وطرق الانتفاع بأنيابها وجلودها السميكة ، ونوه فى الوقت نفسه بالقيمه التجارية لسن الفيل فى أسواق أوروبا ، وما كان من إستخدامه فى بعض الصناعات الأوروبية وشيوع استعماله بين الأوروبيين فى ذلك الوقت .

كذلك بحث « بران روليه » الظروف الطبيعية والجغرافية لاقليم السوباط وأحوال القبائل والجماعات القاطنة على ضفافه ، وعرض لبعض المقترحات الوجيهة لاستغلال اراضى هذا الاقليم التى امتازت بخصوبة تربتها واعجب بها حتى قال « إنه فى الامكان أن تقوم فى جهات السوباط جنة تزرع فيها مختلف أنواع الكروم والفاكهة وغيرها من المحاصيل الزراعية التى تنتجها كل من مصر والهند »[1] .

وإليك عرض لبعض هذه الدراسات التى قام بها الرحاله « بران روليه » فى النيل الابيض ومناطق النيل العليا من واقع ما سجله فى كتاب رحلته فى هذه الجهات « Le Nil Blanc et le Soudan » .

نظام الحكم عند الشلك (الحكومة الاتوقراطية) :

فقد وصف « بران روليه » حكومة الشلك « بأنها وراثية « اتوقراطية » فالملك له مطلق السلطة وتتمثل فيه السلطة التنفيذية والقضائية والتشريعية ، ويعاقب على السرقات التى ترتكب فى الداخل ، ويستولى على جزء من الغنائم التى يستولى عليها رجاله خارج المملكة . وكل قرية (من القرى التى تضمها المملكة) تخضع لضريبة سنوية من البقر تختلف من قرية لأخرى بحسب ثروة السكان . واقارب الملك أو رسله الذين يقومون بجمعها تكون نفقاتهم عادة على حساب البلاد التى يمرون بها »[2] .

ويضيف « بران روليه » إلى ذلك « أن الملك يحتفظ لنفسه باحتكار بيع سن الفيل للتجار والجلابة من تقلى والخرطوم ، ويصنع من سن الفيل لاستعماله وتصرفه الشخصى آساور يهديها للنساء وللمحاربين الذين يرغب فى تكريمهم [3] » .

---

(١) Brun - Rollet : Op. cit, p. p. 105, 106.

(٢) Brun - Rollet : Le Nil Blaic et le Soudan, p.p.95, 96.

(٣) Ibid. p. 96.

ويصف لنا «بران روليه» «اتوقراطية» ملك الشلك — على حد تعبيره — فى معاملة التجار والجلابة من خارج مملكته بقوله « والتجار الذين يأتون من الخرطوم ومن تقلى لبيع السلع المختلفة أو لشراء سن الفيل مضطرون إلى التوقف بعض الوقت على حدود هذه المملكة قبل أن يؤذن لهم بدخولها . وهم يرسلون لجلالته رسولا يحمل الهدايا للحصول على إذن منه بالدخول . وعندما يقبل طلبهم يحرر لهم الملك « فرمانا » يعاملون بموجبه معاملة حسنة حتى وصولهم إلى مدينة دينياب (عاصمه المملكة) ، وهناك يقوم الملك باسكانهم واطعامهم . وفى اليوم التالى لوصولهم العاصمة يطلب إليهم عرض ضائعهم ليأخذ منها الأشياء التى توافق مزاجه وهواه ، ويدفع الثمن الذى يقرره لها رجال قصره » .(١)

ويختم «بران روليه» حديثه بقوله« ومن ثم فإن المكسب أو الخسارة فى البضاعة متوقف على ما يهدى للملك وعلى شعور رجال الحاشية أنفسهم تجاه صاحبها (صاحب البضاعة) . » (٢)

نشاط الشلك الاقتصادى وصيد الفيلة :—

كذلك تناول « بران روليه » فى حياة الشلك نشاطهم الاقتصادى الذى وصفه بقوله « إن الشلك يزرعون خلاف الذرة السمسم والفاصوليا ، ويحصدون الأرز البرى الذى ينبت على شواطىء النهر ، ويرعون الماشية . والفرد منهم الذى يملك عشرين بقرة يعد ميسور الحال ، إذ يكون لديه المقدار الكافى من اللبن لتغذية أسرته » (٣)

وفى مكان آخر يذكر « ان شغل الشلك الشاغل هو صيد فرس النهر (سيد قشطه) الذى يأكلون لحمه ، ويسلخون جلده ويقطعونه إلى

---

(١) Brun-Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p. p. 95, 96.

(٢) Ibid, p. 96.

(٣) Brun-Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p. p. 97—98.

شرائح يبلغ عرض الواحدة منها سمك الأصبعين » . ويصف هـذا العمل « بانه صعب وله نتائج خطيرة » (١)

على أن الحرفة التى لفتت خطورتها بصفة خاصة نظر « برأن روليه » وكان هؤلاء الشلك يمارسونها ايضاً كغيرهم من القبائل التى تقطن مناطق النيل العليا ، هى حرفة صيد الفيلة التى يقول فيها « والآن وقد انتشرت تجارة سن الفيل انتشاراً كبيراً ينسى الناس الصعوبات والمخاطر التى يصادفها المرء فى صيد الفيل والضحايا التى يذهب بها صيده ، والخسائر التى يصاب بها الصيادون ، ينسون كل ذلك فى سبيل الحصول عليه . » (٢)

طرق صيد الفيلة :—

وهنا يتناول هذا الرحالة بشىء من التفصيل الطرق التى يتبعها هؤلاء الزنوج فى صيد هذا الحيوان فيقول : « لقد لاحظ الصيادون فى الزمن الأخير أو فى القرن الماضى أن هذه الحيوانات تسير فى مجموعات صغيرة منفصلة بعضها عن البعض ولكن لا تبعد احداها كثيراً عن الأخرى ، حتى تنقذ نفسها عند الخطر . فيعمد هؤلاء الصيادون ـ ويكون عددهم من اربعمائة إلى خمسمائة شخص ـ إلى الالتفاف حول هذه المجموعات من الأفيال والاقتراب منها شيئاً فشيئاً بمساعدة النار المشتعلة والصياح ودق الدفوف ، ويضطرونها بعد أن يكون قد ادركها الخوف إلى الدخول فى حظائر معدة من قبل لهذا الغرض . وبذلك تجد الأفيال نفسها أسيرة . » (٣)

« وهناك صيادون آخرون لا يستطيعون جمع هذا العدد من الرجال المساعدين ليكونوا منهم جماعة قوية ، فيقسمون أنفسهم إلى جماعات يتكون عدد الواحدة من عشرة أو اثنى عشر أو عشرين شخصا ، ويتحدون

---

(١) Ibid, p. 76.

(٢) Brun - Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p.81.

(٣) Brun - Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p. p. 81,82.

فى الجرى أصغر مجموعات الفيلة ، وفى العادة يلحقونها ويوقفونها بحبال لها عقد محلولة يلفونها حولها فتشبك فى ساقيها . ومجرد أن يقف الفيل الوحشى يضعونه بين فيلين من أفيالهم الخاصة (المستأنسة) ليكسرا من حدته ويضربانه بخرطوميهما . »[١]

ويقول « بران روليه» : «إن هناك وسيلة أخرى وهى أنهم يسوقون أنثى الفيل المستأنسة إلى الغابة فى الوقت الذى يقدرون فيه أن الذكر يرغب فى الاقتراب منها ويضطرون الأنثى إلى أن تطلق صيحات يرد عليها الذكر أولا ، ثم بعد ذلك يعمل على الاتصال بتلك التى أطلقت الصيحات . وفى تلك اللحظة يوجه السائق الأنثى إلى حظيرة مجهزة بأوتاد قوية جدا متشابكة بأفرع الشجر بحيث تكون حاجزاً قويا ، فيدخل الفيل متتبعا الأنثى . ومجرد دخولهما هذا المعتقل يبادرون بقفل مدخله[٢] » .

ويعلق «بران روليه» على هـــذه الوسائل « بأنها أصبحت الآن قليلة الاستعمال لأنها تتطلب كما رأينا تعاون رجال كثيرين ومجهودات لا تتفق مع فقر وكسل القبائل التى تقوم بقنص الأفيال[٣] » ، ويضيف إلى ذلك « أن الزنوج قد اخترعوا طريقة للمطاردة بسيطة جدا وقليلة التكاليف ، وأنهم وحدهم الذين يمكن أن تكون لديهم هذه الفكرة ، لأن مثل هذه الشعوب المحرومة من الأسلحة القوية وليس لديها ما تصارع به الفيل إلا الحربة أو السهم الذى لا يقدر على جرح مثل هذا الحيوان ، تضطر لاستعمال الحيلة للوصول إلى غرضها » .

« لذلك فهم يحفرون حفرة عميقة واسعة ثم يغطونها بأغصان الأشجار الضعيفة وبالأعشاب بصورة تخفى معالم الحفرة إخفاء تاماً ، ويحرصون على حفر مثل هذه الحفرة على شواطىء المستنقعات والبحيرات والنهيرات

---

(٢) Ibid, p. p. 82, 83.
(٢) Brun - Rollet : Le Nil Blanc et le Soudan, p. 83.
(٣) Ibid, p. p. 83, 84.

التى يلاحظون أن الفيلة تأتى لتشرب منها . وعندما تتقدم هذه الحيوانات لتطفىء عطشها ، تمشى على هذه الأغصان التى تغطى الحفرة فتسقط فيها ولا تستطيع الخروج ، وتكون حينئذ تحت رحمة أعدائها [1] » .

ويقول « بران روليه » : « إن هذه الطريقة البسيطة جدا التى يستعملها الزنوج للحصول على الفيل هى الوحيدة المستعملة الآن تقريبا ، وانه لايوجد إلا الأمراء والأعيان الغواة الذين يستعملون طريقة الصيد بالسلاح مع عدد كبير من الرجال بحسب قدرتهم وعادة بلادهم [2] . »

ثم يصف « بران روليه » الطريقة التى يستعملها سكان « الليس » على النيل الأبيض فى صيد الفيلة « بأنها وإن كانت بسيطة ، إلا أنها مبنية على دراسة ومعرفة دقيقة لطباع الفيلة ، وهى جر الفيل إلى الانغماس فى الطين . ذلك أنه عندما يأتى هذا الحيوان للشرب ويضطره خوفه من الفخ إلى التردد فى التوغل فى الماء ، يجىء أهل « الليس » فى هذه اللحظة ويحيطون به وبيد كل واحد منهم دجاجة يهمزها فتصيح . وحيث أن الفيل يفزع من الصراخ ومن الضجيج الشديد ، فإنه عندما يسمع صياح الدجاج تنسيه رهبة الموقف ما يخشاه من خطر فيندفع فى وسط المياه . وفى الحال يقبضون عليه ويقع فريسة تحت أيديهم [3] » .

---

(١) ويضيف « بران روليه » إلى ذلك « أنه قد يحدث فى بعض الأحيان أن الفيل لاجل أن يشرب ماء أنقى يدخل فى المستنقع أو البحيرة أو النهر فينغرس فى الطين ولا يستطيع الخروج . وفى هذه الحالة يكون من السهل على المواطنين أن ينقضوا عليه ويقتلوه بحرابهم » .

وهو يصف صياد الفيله « بأنه يمتاز فى العادة بمهارته وقدرته على الدوران حول نفسه بسرعة ليتفادى ما قد يتعرض له من هجمات الفيل . والفيل بسبب ضخامته وقصر زيله لا يستطيع الدوران بسرعة فاذا هوجم من الخلف أو من الجانب يكون التغلب عليه أكثر امكانا »

(Brun-Rollet : Op. cit, p. p. 84, 85, 87)

(٢) Brun-Rollet : Op. cit, p. 86.

(٣) Brun-Rollet : Le Nil BIanc et le Soudan, p. 87.

أهمية العاج فى الأسواق الخارجية :

وهكذا ينتهى هذا الوصف المفصل للوسائل المختلفة التى يتبعها الشلك وسكان مناطق النيل العليا عامة فى صيد الفيلة . وليس من شك أن الدافع الأول «لبران روليه» على الاهتمام بهذه الدراسة هو المكانة التى صار يحتلها سن الفيل فى تجارة السودان مع الخارج فى ذلك الوقت ، بعد أن فتحت حملات البكباشى المصرى سليم قبطان الكشفية فى النيل الأبيض ومناطق النيل العليا (١٨٣٩ — ١٨٤٢) مورداً جديداً لهذه السلعة فى هذه المناطق النائية من أعالى النيل . وقد مر بنا كيف أن الحصول على العاج كان الهدف الرئيسى للتجار الأوروبيين وقناصلهم من وراء مطالبة الحكومة المصرية وقتذاك باطلاق حرية الملاحة والتجارة فى النيل الأبيض وجهات النيل العليا . كما كان «لبرون روليه» — كما أوضحنا فى أول الحديث عن هذا الرحالة — نشاطه الملحوظ فى هذه التجارة حتى أن جمع هذه السلعة من القبائل والشعوب المختلفة هناك كان أمله المنشود من وراء الاتصال بها والاندماج فى حياتها . ومن ثم فقد كان مدركا لقيمة سن الفيـــل التجارية وجهات تسويقه والأغراض المختلفة التى يروج من أجلها تمام الإدراك .

ونحن نراه يعبر عن هذه المكانة وتلك الأهمية التى صار يحتلها سن الفيل فى الخارج بقوله « إن سن الفيل قد أصبح شائع الاستعمال جداً فى أوروبا . ومن التزيد فى القول أن نذكر فائدته فى الصناعة أو فى أغراض الزينة التى يخترعها عالم المزاج . ومع أن صلابته لا تجعل استعماله سهلا ، فإنه يستعمل فى أكثر من ألف شكل من أشكال العمل المختلفة [1] ».

---

(١) Brun-Rollet : Op. cit, p. 80.

مصادر البحث

أولا : المصادر الأوروبية

— Brun-Rollet : "Le Nil Blanc et le Soudan". Paris, 1855.

— Deherain, H. : "Le Soudan Egyptien sous Mehemet Ali." Paris. 1899.

— Hill, R. : "A biographical dictionary of the Anglo—Egyptian Sudan". Oxford, 1951.

— Pallme : "Travels in Kordofan". London, 1844.

— Taylor, B. : Journey te Central Africa, or, Life and Landscapes from Egypt to the Negro Kingdoms of the White Nile New York, 1854.

ثانياً ـــ المصادر العربية والتركية

ـــ وثائق لم تنشر من قسم المحفوظات التاريخية بقصر الجمهورية (سراى عابدين) وتوجد فى الدفاتر والمحافظ الآتية : ـــ

١ ـــ دفاتر « أوامر » مقيدة فيها الأوامر الصادرة من الجناب العالى إلى حكمدارى ومديرى الأقاليم السودانية .

٢ ـــ دفاتر « خديوى تركى » مقيد فيها لوائح وأوامر باللغة التركية .

٣ ـــ دفاتر « معية تركى » وهى دفاتر قيودات قيدت فيها المكاتبات التركية بين المعية والدواوين والأقاليم .

٤ ـــ دفاتر « معية عربى » وهى دفاتر قيودات قيدت فيها المكاتبات العربية بين الدواوين والأقاليم .

٥ ـــ دفتر « مجلس ملكية » ويضم بعض اللوائح والأوامر باللغة التركية.

٦ — محافظ « ديوان خديوى تركى » وتضم المكاتبات التركية بين الدواوين والأقاليم و بين الديوان الخديوى .

٧ — محافظ «معية تركى» وتضم المكاتبات التركية بين الدواوين والأقاليم.

— محمد فؤاد شكرى (دكتور) مصر والسودان . تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر (١٨٢٠ — ١٨٩٩) القاهرة ١٩٥٧ .

— نسيم مقار (دكتور) : البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل . القاهرة ١٩١٠ .

مكتبة قطر الوطنية
QATAR NATIONAL LIBRARY
عضو في مؤسسة قطر
Member of Qatar Foundation

QATAR NATIONAL LIBRARY

3 9999 00851 586 6

الثمن ٢٠ ص